رواية

André Gide

أندريه جيد

مدرسة الزوجات

Telegram:@mbooks90

ترجمة : صبري فهمي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى إدمون جالو

ذكرى ودية لمحادثاتنا عام ١٨٩٦

أول أغسطس 1928

سيدي

بعد تردد كثير، قررت أن أرسل إليك هذه الكراسات؛ وهي صورة على الآلة الكاتبة من اليوميات التي تركتها لي والدتي، وقد توفيت في 12 أكتوبر سنة 1916 بمستشفى ..... حيث كانت تتولى العناية بالمصابين بأمراض معدية.

لم أسمح لنفسي بتغيير شيء منها فيم عدا الأسماء؛ وأنا أترك لك حرية نشر هذه الصفحات إذا رأيت أن قراءتها قد لا تخلو من الفائدة لبعض الزوجات الفَتيّات.

وفي هذه الحالة يسرني أن يكون عنوان هذه المذكرات "مدرسة الزوجات" إذا لم ترَ أن استعمال هذا التعبير من بعد "موليير" أمر نابٍ.

وبديهي أن تقسيم اليوميات إلى جزئيها الأول والثاني والخاتمة إنما هو تقسيم من عندي.

لا تحاول معرفتي، واسمح لي ألاّ أوقّع كتابي بتوقيعي الحقيقي.

جنوفييف د ....

الجزء الأول

7 أكتوبر 1894

صديقي

يخيّل إلي أنني إليك أنت أكتب، فأنني لم أسطر يوميات من قبل، ولم أفلح إلا في كتابة بعض الخطابات؛ ولولا أنني أراك كل يوم لكنت ولا ريب قد كتبت إليك.

على أنه إذا قُدر لي الموت قبلك، وهذا ما أرجوه لأن الحياة دونك لا تبدو لي إلا جرداء، فسوف تقرأ هذه السطور.

وسوف يُخيّل إليّ أنني إذ أتركها لك لا أفارقك الفراق كله، ولكن كيف نفكر في الموت، والحياة كلها أمامنا؟ مذ عرفتك، أعني مذ أحببتك، تتراءى لي الحياة جميلة نافعة وقيّمة حتى أنني لا أريد أن أضيع منها شيئًا، سأحفظ في هذه الكراسة كل فتات سعادتي، وهل لي من عمل يومي، بعد انصرافك عني، سوى أن أعود فأحيا خاطف اللحظات الماضية وسوى أن أتمثلك حاضرًا؟، قبل أن ألتقي بك كنت أتألم، وقد ذكرتُ لك ذلك، كنت أتألم لشعوري بأن حياتي تنقضّي بلا عمل؛ لم يكن عندي ما هو أشد عبثًا من مشاغل هذه الحياة الاجتماعية التي كان يدفعني إليها والداي دفعًا، والتي ما أزال أرى صديقاتي يسعدن بها السعادة كلها. وحياة كهذه لا إثار فيها ولا غاية لها لم تكن من المحتمل أن ترضيني. أنت تعرف أنني فكرت جدّيًا في أن أكون ممرضة أو راهبة أقف على خدمة المساكين؛ كان والداي يهزان كتفيهما إذا ما حدثتهما في ذلك، وكانا على حق في أن يفكرا بأن هذه النزعات سوف تتلاشى متى لقيتُ الرجل الذي يمكنني التعلق بحبه. لِمَ يأبى اليوم والداي الإقرار بأنك ذلك الرجل؟ أترى كيف لا أحسن التعبير! هذه العبارة التي أكتبها باكية تبدو لي مروعة، لِمَ استعدت قراءتها؟ لا أدرى أكنت في يوم ما قد أحسن الكتابة.. على أية حال لن يكون ذلك وأنا أتلمّس الإتقان.

Telegram:@mbooks90

قلتُ أنني قبل التقائي بك كنت أبحث لحياتي عن هدف، والآن أنت هدفي وشغلي، بل حياتي، ولم يعد لي مطلب عداك. أنا أعلم أنني منك وبك أستطيع

أن استخلص من نفسي أحسن ما بها، فعليك إذن إرشادي وهدايتي إلى الجميل والخير، وإلى الله الذي أسأله أن يمدّني بعونه حتى أنتصر على معارضة والديّ؛ وحتى يكون لسؤالي إياه أوقع الأثر، هاأنا أدون صلاتي الضارعة هذه :"رب لا تلزمني معصية والديّ. أنت تعلم أنني أحب روبير وليس في طاقتي أن أكون لسواه".

الحق أنني لم أدرك ما قد يكون هدف حياتي إلا منذ الأمس فقط؛ نعم لم أدرك ذلك إلا بعد هذا الحديث الذي جرى بيننا في حديقة التويلري؛ إذ أظهرني على الدور الذي تقوم به المرأة في حياة عظماء الرجال. لشدّ ما أنا جاهلة... فلقد نسيت لسوء حظي ما ضربه لي من أمثلة لذلك؛ على أنني أذكر هذا، وهو أن حياتي كلها يجب أن تُخصص له من الآن حتى تهيئ له أداء رسالته المجيدة. ليس هذا بطبيعة الحال ما قاله لي، لأنه متواضع؛ ولكن هذا ما فكرت أنا فيه، فأنني به فخورة. ثم إنني أعتقد أنه على تواضعه يعرف تمامًا قدر نفسه، كما لم يخف عني أنه واسع الطموح.

قال لي في ابتسامة ساحرة: ليس غرضي أن أبلغ مطامعي وإنما غرضي العمل على أن تنتصر المبادئ التي أمثلها.

ليته أتيح لوالدي أن يسمعه، ولكنه في كل ما يتصل بروبير، شديد العنت حتى لقد يرى في قول روبير ما يسميه... لا! لا أريد حتى أن أكتب ذلك. كيف لا يدرك أن عبارات كهذه لا تسيء إلى روبير وإنما تسيء إليه؟. إن ما أحبه بصفة خاصة في روبير، هو أنه لا يتهاون مع نفسه قط، ولا يفوته مطلقًا ما يتحتم عليه نحوها؛ ويخيّل إليّ أن الغير جميعًا بالقياس إليه يجهلون ما هو حريٌ أن يُدعى كرامة: وفي وسعه بها أن يسحقني إن شاء، إلا أنه يهتم إذا ما خلونا إلى أنفسنا بألا يشعرني بها قط؛ بل أراه أحيانًا يسرف بعض الإسراف إن خاف أن أشعر أنني فتاة صغيرة بالقياس إليه فإذا به في هذه الحال يهزل كالأطفال. ولقد لمته بالأمس على ذلك وإذ ذاك اتخذ مظهرًا فيه جدٌ كثير، وتمتم في شيء من الحنين فاتن:

- ما الرجل إلا طفل هرم. وكان قد جلس إزاء قدميّ ووضع رأسه على ركبتيّ.

من دواعي الأسى حقًا أن تذهب هباءً عبارات بهذا الظرف، عبارات أحيانًا ما

تكون بعيدة المرمى، مليئة المعنى. وعهدٌ عليّ أن أضمّن هذه الكراسة معظم ما أمكن تدوينه منها، وأنا واثقة من أنه سوف يسرُّ إذا ما وجدها فيما بعد.

لقد فكرنا في كتابة هذه اليوميات على أثر هذا الحديث خاصة. لا أدري لِم أقول ذلك في صيغة الجمع فهذه الفكرة، كغيرها من جيد الفكر، إنما ترجع إليه هو. وموجز القول أننا تعاهدنا على أن يكتب كل منا على حدة ما أسماه هو قصتنا؛ فأما فيما يتعلق بي فان الأمر يسير لأنني لا أحيا إلا به، وأما فيما يتعلق به فلا ثقة عندي في أن يبلغ ما يريد، وأن توفّر له الوقت، وإني لأكره أن يشغل فكره بهذه اليوميات أكثر مما ينبغي، ولقد حادثته طويلًا في أنني أدرك تمام الإدراك أن له مهنته وآراءه وحياته العامة، وفرضٌ على حبي ألا يقف في سبيلها، وأنه إن صح أن يكون هو كل حياتي فليس بسائغ أن أكون أنا كل حياته. يشوقني أن أطلع على ما دوّنه بيومياته في هذا الصدد؛ ولكننا أقسمنا قسمًا عظيمًا ألا يطلع أحدنا الآخر على يومياته.

قال وهو يقبّلني، لا على جبيني وإنما تمامًا فيما بين عيني كما يروقه أن يفعل: أنه على هذا الشرط فقط يمكنه أن يكون صادقًا فيما يكتب.

على أننا اتفقنا أن من مات منا أولًا خلف الآخر يومياته؛ ولما قلت في شيء من البلاهة: "إن هذا أمر طبيعي" قال هو بلهجة فيها جد كثير: "لا، لا إنما علينا أن نتفق فقط على ألا نتلف هذه اليوميات".

كنت تبتسم حين قلتُ أنني لن أجد ما قد أدوّنه في هذه اليوميات. وها أنا قد ملأت بها فعلًا أربع صفحات. أجد مشقة جسيمة في أن أرد نفسي عن استعادة قراءتها، فإذا ما استعدتها وجدت مشقة أكبر في أن أرد نفسي عن تمزيقها. وما يدهشني حقًا إنما هي هذه المتعة التي بدأت ألقاها في كِتابتها.

12 أكتوبر 1894

لقد استدعي روبير فجأة إلى بيربيان إلى جوار والدته وكان قد وصلته عن صحتها أخبار سيئة.

قلت له : أرجو ألا يكون هناك أمر ذو بال.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأجاب في ابتسامة تنم عما في قرارة نفسه من قلق: "هذا ما يقال دائمًا". فلمت نفسي في الحال على عبارتي السخيفة هذه.

وإذا اقتضى الأمر أن أتجرد في حياتي من كل الحركات التي تصاحب حديثي، وكل العبارات الدارجة التي ألوكها لمجرد الكلام فأنني لا أدرى ما قد يتبقى بعد! كان لابد لي من الاتصال برجل متفوق حتى أتبين ذلك جليًا. وإنه ليعجبني من روبير أنه لا يقول ولا يفعل شيئًا كما يقول ويفعل سائر الناس؛ ومع ذلك لن تجد في قوله أو فعله أثرًا للادعاء أو التكلف. فكرت طويلًا في النعت المناسب الذي يميزه عن الآخرين في مرآه وزيه في حديثه وحركاته، فلفظ "غريب" أرى فيه غلوًا، أأقول "فريدًا" أو "وحيدًا"؟ لا... إنما أعود إلى لفظ "ممتاز" كم أودُّ لو أن هذا اللفظ لم ينعت به سواه. وفي رأيي أنه لا يدين إلا لنفسه بهذا الامتياز غير العادي، وفي شخصيته وفي مسلكه، لأن أسرته، على ما فهمت منه، كانت إلى حد ما من عامة الناس. قال إنه لا يخجل من أهله وفي ذلك ما يحمل على الاعتقاد بأن هناك نفوسًا، تقل عنه استقامة وكرمًا، وقد تجد في هذا النسب ما تستحي منه. كان والده على ظني، يشتغل بالتجارة وكان روبير صغيرًا جدًا حين فقده؛ هو لا يحب أن يتكلم عنه وأنا لا أجرؤ على سؤاله، وعندي أنه يحب والدته كل الحب؛ قال لي يومًا، قبل أن تزول بيننا الكلفة :"إن حق لك أن تغاري كان ذلك منها دون سواها". وكانت له أيضًا أخت تصغره وتوفيت.

أريد أن أغتنم فرصة تغيبه، بما تتيحه لي من فراغ، لأروي هنا كيف تعارفنا. كانت والدتي تود لو أنني صحبتها إلى حفلة شاي تقيمها أسرة داربليه، ويعزف فيها على الكمان موسيقي مجري يقال إنه ماهر كل المهارة، ولكنني تعللت بصداع حاد انتابني وذلك لكي أترك في هدوء وحدي... مع روبير. أنا لا أدرك الآن كيف ظللت مفتونة بمسرات المجتمع ولهوه طول المدة التي كنت فيها كذلك، أو بالأحرى أنا أدرك الآن في حسرة أن ما كان يفتنني منها هو ما كان يرضي غروري. الآن لا أتطلب سوى رضاء روبير ولا يعنيني أن يرضى الغير عني، وإن عناني فمن أجل روبير وما ألمسه من سروره برضى الغير عني. في ذلك الوقت، الذي على قربه يبدو لي الآن بعيدًا كل البعد، كنت أعلق أهمية كبرى على ابتسامات الرضى وعبارات التقريظ، بل على

أمارات الحسد والغيرة التي كانت تبدو من بعض أترابي. وأراني وأنا جالسة إلى بيانو ثان أعزف - في شيء كثير من النجاح، وبه أقر- مقطوعة الأوركسترا المفروضة عليّ من كونشرتو الخامس لبيتهوفن بينما كانت روزيتا تقوم "بالسولو". وكنت أتكلف التواضع الجمّ في حين كان اغتباطي على أشده لأن أرى ثناء الناس عليّ يزيد عن ثنائهم عليها. كان الناس يقولون: "روزيتا هذا لا يدهشنا منها والموسيقى حرفتها أما إيفلين..." أما الذين كانوا يصفقون لنا أشد التصفيق فكانوا قومًا لا يفقهون شيئًا في الموسيقى؛ كنت أعرف ذلك ولكنني كنت أتقبل منهم إطراءهم وكان الأحرى أن أضحك من هذا الإطراء، بل لقد ذهبت إلى أن أولئك القوم ربما كان تذوقهم للموسيقى أكثر مما كنت أظن. وعلى هذا كنت أترك نفسي تنقاد إلى هذا العبث السخيف... بلى، أرى الآن نوع التسلية التي يمكن أن نتسلى بها في هذه المجتمعات وأقصد التفكه على الناس والسخرية منهم ؛ غير أنني ما وُجدت في مجتمع إلا وشعرت أنني أكثر الموجودين مدعاة للتفكه والسخرية... أنا أعرف أنني لست جميلة ولا ذكية جدًا ولست أدري أي شيء عندي رآه روبير جديرًا بالحب. لم تكن لي من أسباب النجاح في المجتمع إلا بعض المهارة بالعزف على البيانو؛ ولكنني انصرفت عنه منذ بضعة أيام انصرافًا لاشك في أنه نهائي. فَلِم العزف وروبير لا يميل إلى الموسيقى؟ هذا عيبه الوحيد فيما أرى، ولكنه على النقيض من ذلك، يهتم اهتمامًا نابهًا بالتصوير حتى لأتساءل لِمَ لا يحاول التصوير. ولما حدثته في ذلك ابتسم قائلًا: "إذا ما المرء "ابتُلي" (وهذا هو اللفظ الذي استعمله) بمواهب متعددة متباينة تعذّر عليه توجيه عنايته إلى ما كان منها أحق بالعناية". فأنه حتى يعنى عناية جدية بالتصوير كان لزامًا عليه أن يضحي بأشياء أخرى. وقال إنه يُقدّر أنه إذا وجّه عنايته للتصوير بأشياء أخرى فلن يتاح له أن يؤدي أكثر ما يستطيعه من خدمات. أظنه يريد أن يشتغل بالسياسة ولو أنه لم يذكر لي ذلك في صراحة، على أية حال أنا واثقة من أنه سينجح مهما كان ذلك العمل الذي يتخيره، حتى أنه قد يحزنني بعض الحزن أن أشعر أن حاجته إلي لكي ينجح في أي عمل ضئيلة تكاد لا تذكر؛ ولكنه طيب القلب إلى حدّ بعيد حتى ليدعي أنه لا يمكنه الاستغناء عني. ولدعواه هذه في نفسي أعذب الوقع فتراني أتقبل كلامه دون أن أؤمن به.

ها أنا أنساق إلى الكلام وكنت عاهدت نفسي ألا أتكلم عنها؛ ولقد أصاب الأب بريدل في تحذيرنا من شراك الأثرة؛ إذ يقول إن الأثرة قد تستخفى أحيانًا بقناع الإخلاص والحب فتحسن التستر.

نحب أن نخلص للذة التفكير في أننا صالحون، ونحب أن نسمع الناس يقولون لنا ذلك؛ فأن الإخلاص التام هو الذي لا يعلم به أحد إلا الله والذي لا ينتظر رعاية أو ثوابًا إلا منه. على أنني اعتقد أنه ما من شيء يُعلم التواضع أحسن التعليم سوى أن نحب شخصًا جديرًا بالتقدير، وأنني لا أتبين فعلًا مدى قصوري إلا بجانب روبير وأرد لو أستطيع أن أضم قليل نفسي إلى كثيره. كنت قد بدأت حديثي وفي نيتي أن أروي حديث قصتنا وفي البدء كيف كان لقاؤنا.

كان ذلك من ستة أشهر وثلاثة أيام، في 9 أبريل 1894 وكان والديّ قد وعداني برحلة إلى إيطاليا احتفالًا بالجائزة التي حصلت عليها في معهد الموسيقى؛ ولكن وفاة عمي ومشاكل الإرث لوجود أولاد قصر أخرت سفرنا. كنت قد نبذت فكرة السفر جانبًا، وإذا بوالدي يقرر فجأة ترك والدتي مع بنات عمي الصغيرات في باريس واصطحابي إلى فلورنسا لقضاء عطلة عيد الفصح، وفي فلورنسا نزلنا "بنسيون جيرار" الذي تبين أن السيدة دي ت.... كانت صائبة إذ نصحت به.

كان النزلاء كلهم من صفوة المجتمع حتى أن الاجتماع بهم إلى المائدة المشتركة كان أمرًا غير ثقيل. كانوا ثلاثة من السويديين وأربعة من الأمريكيين وانجليزيين وخمسة من الروس وسويسريًا واحدًا، ولم يكن هناك فرنسيون غيرنا وروبير، كنت تسمع كل اللغات ولكنك كنت تسمع الفرنسية بصفة خاصة لأن الروسيين كانوا يتكلمونها وكذلك السويسري، ثم نحن الثلاثة، وبلجيكي نسيت أن أذكره. لم يكن أحد من النزلاء ثقيلًا ولكن روبير كان يفوقهم جميعًا، كان يجلس إزاء والدي، ومن عادة والدي أن يبدي بعض التحفظ لمن كانوا من غير مجتمعه بل كثيرًا ما يظهر الجفاء لهم، ولما كنا آخر الوافدين إلى البنسيون كان طبيعيًا ألا نشترك في الحديث تؤًا، أما من ناحيتي فإن رغبتي في الكلام كانت شديدة جدًا غير أنه لم يكن من الحياء أن أبدي تلطفًا لم يظهره والدي فحاكيت تحفظه، وإذ كنت أجلس إلى جانبه، كان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سكوتنا وسط هذه الضوضاء العامة يخلق شبه جزيرة صغيرة من الصقيع، وكان مما يبعث على الفكاهة أننا كنا لا نستطيع أن نذهب إلى مكان ما دون أن نلتقي ببعض نزلاء البنسيون، وكان والدي يرى نفسه مضطرًا إلى الرد على تحياتهم وابتساماتهم، فإذا ما جلسنا بعد ذلك إلى المائدة عرف الجميع أننا عائدان من سانتا كروس أو من قصر بيتي، فكان والدى يقول: "هذا لا يطاق"، ولكن تحفظه كان يزول شيئًا فشيئًا، أما روبير فكنا نلتقي به في كل مكان، فإذا دخلنا كنيسة أو متحفًا كان نظرنا يقع أول ما يقع على روبير، فيصيح والدي :"ها! مرة أخرى!". وكان روبير، في بدء الأمر، يتظاهر بأنه لا يرانا حتى لا يثقل علينا، فقد كان أذكى من أن يفوته أن هذا اللقاء المتتالي يثير سخط والدي، فكان يتريث إلى أن يتفضّل والدي بالتعرف إليه، ثم هو لا يبدأه التحية تحرجًا منه، وكان لذلك يتكلف الانهماك في مشاهدة تحفة من التحف. وكان والدي، في بعض الأحيان، لا يحييه إلا بعد فترة طويلة لأنه كان إزاء روبير بصفة خاصة يتكلف أشد التحفظ، وكنت أشعر ببعض الحرج من ذلك، فإن تحفظه هذا كان يبلغ حدًا يدنيه من عدم اللياقة - يمكنني أن أقول ذلك حقًا.

ولولا أن روبير كان طيب الخصال لرأى في مسلك والدي ما يؤاخذ عليه. وإذ كنت لا أستطيع أن أمنع نفسي من الابتسام كان يفهم أنه لم تكن هناك نية سيئة من جانبي، أنا على الأقل. وكان يتعذر عليّ ألا أبتسم لأن والدي كان أشد جفاء نحوه؛ ولحسن الحظ كان والدي لا يفطن إلى شيء لأن ذلك كان يحدث من وراء ظهره، وكان روبير كيس التصرف إذ كان يحرص ألا يبين لوالدي أنه يراه وألا يوجه إليّ الكلام مباشرة، ولو أنه فعل لأغضب والدي. كنت ألوم نفسي بعض اللوم على هذا اللعب الذى كان يخلق، فيما بيني وبين روبير، وفي خفية عن والدي، نوعًا من التخاطب الصامت؛ ولكن لم تكن هنالك سبيل لتجنب هذا اللعب.

كان يزيد من تحفظ والدي أن روبير لم يكن من نفس آرائه. لم أكن أدرك تمامًا ما كانت آراء والدي؛ لأنني لا أفقه في السياسة شيئًا، ولكنني أعرف أن والدتي تؤاخذه على ما تسميه "ماديته" وأن والدي لا يحب "القساوسة" كثيرًا. حينما كنت أصغر سنًا كنت أدهش كيف يكون والدي طيب القلب جدًا، ثم هو لا يذهب إلى الكنيسة لحضور الصلاة، ولست أحسب من الصواب قوله: "إن الدين لا يجعل الناس خيرًا مما هم"،

تراه والدتي عنيدًا ولكنني أعتقد أنه أطيب منها قلبًا، فإنهما إذا ما تجادلا، وهذا ما كان يحدث أكثر مما تقتضيه الضرورة، خاطبته والدتي في لهجة مثيرة، فإذا بعطفي كله يتجه إليه، وإن كنت لا أوافقه في رأيه. وهو يقول إنه لا يؤمن بالجنة، إلا أن الأب بريدل يجيبه بأنه سوف يتحتم عليه الإيمان بها، لأنه سوف يذهب إليها فتسلم روحه رغمًا عنه، وهذا ما أومن به من كل قلبي.

هذا الانقسام في أسرة كأسرتي، يسودها أوثق التآزر، يبعث في النفس الأسى.... إذ فيم الانقسام! في أمور قد يكون من اليسير التفاهم فيها لو أن كلًا أبدى بعضًا من الهوادة! على أية حال أنا لا أخشى من ذلك شيئًا على علاقتي بروبير؛ لأنني ما رأيته قط يدخل كنيسة إلا صلى فيها، ثم إن آراءه ليس فيها إلا كل كريم نبيل، لا أعتقد أن جريدة "لا ليبر بارول" جريدة رديئة كما يزعم والدي، وهو لا يقرأ إلا جريدة "الطان" ولقد حسبت أن الأمر كاد يفسد بينهما في اليوم التالي لحضورنا إلى "بنسيون جيرار"؛ إذ جلس روبير ووالدي في غرفة التدخين أحدهما إزاء الآخر، كان باب الغرفة مفتوحًا على مصراعيه واستطعت أن أراهما، كلًا منهما في مقعده وأمامه جريدته، ولما أن أتم روبير تصفح جريدته ناولها دون وعي إلى والدي موجهًا إليه كلمات لم أسمعها، عندئذ ثارت ثائرة والدي حتى أنه قلب على سرواله الفاتح اللون قدح القهوة الذي كان قد وضعه على ذراع مقعده، اعتذر إليه روبير وألح في الاعتذار ولو أنه لا ذنب له حقًا فيما كان، وبينما كان والدي يجفف سرواله بمنديله، رآني روبير وأنا جالسة في غرفة الاستقبال، فأومأ إليّ في إشارات تكاد لا ثرى ولكنها كانت على خفتها تعبر عن أسفه تعبيرًا بليغًا؛ كانت هذه الإشارات مضحكة بحيث لم أتمالك نفسي من الضحك، وأدرت رأسي في سرعة حتى لا يتوهم أحد أنني أهزأ بوالدي.

وفي اليوم السادس أصيب والدي بنوبة نقرس... ، أوه! لا يليق بي أن أفرح بذلك! طبيعي أنني عرضت عليه أن أظلّ إلى جانبه أقرأ له، ولكن كان الجو جميلًا جدًا وقد ألزمني هو أن أخرج، فاغتنمت فرصة غيابه لأزور كنيسة الإسبان لأنه لا يحب المصورين الأولين. وبالطبع وجدت روبير هنالك ولم يكن بد من أن نتبادل الكلام، بعد أن أبدى دهشة من حضوري وحدي، ثم بعد أن استفسر في أدب عن صحة

والدي، لم نتحدث إلا عن التصوير. وكدت أكون سعيدة بجهلي؛ إذ أتاح لي أن يتولى روبير شرح كل ما نرى، كان معه كتاب ضخم ولكنه لم يحتج لفتحه إذ كان يعرف عن ظهر قلب أسماء جميع المصورين القدماء، ولم أستطع أن أشاركه توًا في إعجابه وتفضيله للوحات كانت تبدو لي حينئذ لا شكل لها تمامًا؛ غير أنني كنت أشعر أن كل ما يقوله عنها صحيح، وأن عينيّ كانتا تتفتحان على وجوه من الحسن ما كنت ألحظها لو كنت وحدي، ثم رأيتني أنقاد له وأتوجه معه إلى دير سانت مارك حيث خُيّل لي أنني أفهم التصوير لأول مرة. لشدّ ما كان رائعًا أن نفنى ونذهل عن أنفسنا في إعجاب مشترك حتى أننا لما بلغنا لوحة "أنجليكو" رأيتني في غير وعي أتأبط ذراعه، ولم أنتبه إلى ذلك إلا بعد أن دخل بعض القوم الكنيسة الصغيرة حيث كنا وحدنا إلى تلك اللحظة. ومع أن روبير لم يقل شيئًا لا يصح أن يسمعه والدي فأنني مع ذلك لم أجرؤ على أن أحدثه به بعد عودتي. لا شك في أنه فعل رديء، تكتمي هذه المقابلة التي تركت في نفسي ذكريات لم أعد أستطيع أن أفكر في سواها. على أنني لما آخذت نفسي على هذا "الكذب بالإغفال"، وذلك أثناء اعترافي للأب بريدل فيما بعد، طيب خاطري... والحق أني أخبرته بخطبتي في الوقت نفسه. والأب بريدل يعرف أن والدي لا يوافق على هذه الخطبة كما يعرف أن مانعه من الموافقة هي آراء روبير السياسية؛ مع أن هذه الآراء نفسها هي التي تحمل أمي والأب بريدل على الموافقة عليها؛ على أن والدي طيب القلب إلى حدّ كبير فلم يستطع أن يمانع طويلًا، وكما يقول إن ما يهمه قبل كل شيء هو أن أكون سعيدة، وهو لا يمكنه أن يشك في سعادتي.

كان أحرى بي قبل حديث خطبتنا أن أتكلم عن الأيام الأخيرة في إيطاليا، ولكني تركت قلمي يجري في سرعة إلى هذا اللفظ العجيب الذي تشحب أمامه باقي ذكرياتي. قبل أن نرحل من فلورنسا طلب روبير إلى والدي أن يسمح له بزيارتنا في باريس، كنت وجلة كل الوجل من أن يرفض طلبه، ولكن تصادف أن روبير كان يعرف أبناء عمي من أسرة بير فدعونا للعشاء معه، وهذا ما يسّر الأمور إلى حد بعيد. وفي الغداة حضر روبير ليقدم احترامه لوالدتي، ثم عاد بعد بضعة أيام يطلب يدي (كم تبدو هذه العبارة سخيفة!) أبدت والدتي في أول الأمر بعض الدهشة، وكانت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دهشتي أشد حين أبلغتني الأمر، لأن روبير لم يكن بعد قد "فاتحني" برغبته في خطبتي. ولقد ضحك طويلاً لما اعترفت له بذلك و "فاتحني" بأنه لم يفكر في هذا الأمر من قبل وأنه على أتم استعداد لهذه "المفاتحة" إن كنت لم أدرك بعد أنه يحبني، ثم أخذني بين ذراعيه وشعرت أنني أيضًا في غير حاجة إلى الكلام لكي يدرك أني أهبه نفسي بأكملها.

وصلتنا الآن برقية، تركتْ والدتي تفضها مع أنها موجهة إليّ. قالت: "لقد توفيت والدة روبير" ثم ناولتني البرقية فلم أر فيها إلا أمرًا واحدًا: هو أن روبير سوف يعود إليّ في يوم الأربعاء.

13 أكتوبر

كتاب من روبيرا ولكنه موجّه إلى والدتي! وأعتقد أنها تأثرت تمامًا بهذا الدليل على الاحترام. وأدرك أن والدتي ترغب في الاحتفاظ به لأنه جميل جدًا؛ ولما كنت أريد أن أتمكن من استعادة قراءته فيما بعد فأنا أنقله بنصه:

سيدتي

سوف تغتفر لي إيفلين أني أكتب إليك اليوم لا إليها. أريد ألا أعرض فرحها للتأثر بمشهد حزني، فإليك أنت ألجأ للبكاء. هذا الاسم الجميل، وأعني به أمي، لم يعد يتاح لي أن أطلقه على أحد سواك من بعد الأمس، وسوف تسمحين لي إذن، ولا شك، أن أحول إليك عواطف الإجلال والحنان التي كنت أكنها لمن بالأمس فقدتها، نعم، لقد ماتت أمس تلك التي وضعتني حيًا، وفي إمكاني أن أقول إنها ماتت بين ذراعي. لم تفقد حواسها إلا قبل وفاتها بساعات قليلة، وكانت إلى هذا الصباح متيقظة حينما أدت على يد الكاهن الذي استدعيته آخر فروض دينها، كانت تستقبل الموت في سكينة، ويخيّل لي أنها لم تكن تحزن لشيء سوى حزني. ولقد قالت لي إن آخر ما يسعدها في هذا العالم أن تعلم خبر خطبتي، وأن تفكر في أنها لا تتركني في هذه الدنيا وحيدًا. أرجو أن تبلغي إيفيلين هذا القول، وأن تذكري لها أن سوف يكون أسفى الدائم أن والدتي لم يتح لها أن تعرفها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأرجو أن تتقبلي يا أماه تأكيدي لإخلاصي الدائم واحترامي البنوي.

روبير د.

يا صديقي المسكين، كنت أود أن أشاركك في الحزن، ولكن عبثًا حاولت الشعور بالأسى، فإن قلبي يغمره الفرح، وكل ما أشعر به معك حتى الألم يسعدني.

15 أكتوبر

عاد ورأيت في حزنه جمالاً ووقاراً أعجب بهما. لقد بدأت الآن أفهمه أحسن من قبل. أعتقد أنه يمقت تمامًا تلك العبارات المصنوعة فإنه يبدى في حزنه نفس التحفظ الذي أبداه عندما فاتحني بحبه، وتراه يتجنب كل ما يثير شجنه مخافةً أن يظهر تأثره، لذلك لم يتناول حديثنا سوى المسائل المادية. وكذلك كان حديثه مع والدتي، فإنه جرى حول التركة وإجراءاتها وبيع العقار الذى آل إليه. وعسير عليّ أن أشغل ذهني بهذه الأمور، وأنني أترك لوالدتي أمر ترتيبها مع روبير. فهمت أننا سنكون أثرياء ويؤسفني؛ إذ بودي لو أترك المال لأولئك الذين يعوزهم المال ليسعدوا. ولكن لا شأن للسعادة هنا. ويقول روبير في هذا الصدد أن ما سيكون لديه من مال، قلّ أو كثر، سوف يكفيه، وأنه لا يقدّر المال إلا من حيث أنه أداة تتيح له انتصار آرائه. ولقد جرى بينه وبين الأب بريدل حديث طويل في هذا الشأن، فقال الأب بريدل: "لا حق لنا في رفض ما يأتينا من مال ولكن فرض علينا صرفه في وجوه البرّ والإحسان".

مسكين أبي! كل ذلك يجري وهو لا يدري؛ فما من مرة رأى فيها الأب بريدل داخلًا المنزل إلا عاجله بقوله: "أنا آسف! أنا مضطر للخروج اضطرارًا"، ثم يحيي تحية خاطفة وينصرف. خوفي الدائم أن يتأثر الأب بريدل من هذا التصرف؛ ولكنه طيب القلب جدًا، كثير الهوادة حتى ليتظاهر بتصديق هذا الاعتذار الواهي فيسأل والدتي: "هل كان السيد ديلابورد مشغولاً هكذا دومًا؟" وتبذل والدتي وسعها مضاعفة ملاطفتها له حتى تصلح من أثر هذا التصرف القبيح. وفي رأيي أن لو شاء والدي لكان من اليسير تفاهمه والأب بريدل؛ لأن والدي هو الآخر طيب القلب جدًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولما تحدثت إلى والدي في هذا الشأن، محاولة إقناعه بضرورة هذا التفاهم أجاب: "يا بُنيتي إنني والقسس لا نعبد إلهًا واحدًا. لا تلحي عليّ فإنني قد أغضب، وهذه أمور قد تفهمينها فيما بعد إن كنت لا تشبهين أمك كل الشبه".

وأراني عندئذ مدفوعة إلى القول له إن هذه "الأمور" أرجو ألا أفهمها أبدًا؛ إذ لا يسعني قبول آراء تدعو للتفرقة بين أبوين أحبهما حبًا متكافئًا، وذلك فضلًا عن أن هذه الآراء اللعينة هي نفسها الحائل الوحيد دون موافقته على خطبتي.

ولقد أضاف والدي إلى سابق قوله: يا بُنيتي أنا لا أرى لنفسي حقًا في أن أعارض هذا الزواج؛ ولئن كان لي هذا الحق فلا يسرني استعماله، ولكن أطلب إليك ألا تسألني الموافقة على قرار أنا آسف أنك اتخذته.... وكل ما في استطاعتي هو أن أتمنى ألا تندمي على قرارك هذا في يوم قريب.

19 أكتوبر

في هذا الصباح سألت والدي عما يأخذه على روبير، فنظر إليّ طويلًا وزم شفتيه برهة ثم قال:

- يا بنيتي، أنا لا آخذ عليه شيئًا، الأمر بسيط، إنه لا يعجبني. إن أنبأتُك السبب احتججت لأنك تحبينه، وإذا أحببنا أحدًا رأيناه غير ما هو.

فصحت به: بل أنا أحب روبير لأنه كما هو.

ولكنه قال:

- إن روبير يوهم الأب بريدل، كما يوهم والدتك ويوهمك، وأخشى أن يكون لنفسه أيضًا موهمًا وهذا أخطر ما في الأمر.

قلت: أتعني يا أبتاه، أنت لا تؤمن بشيء.

قال: وما العمل؟ تراني أمك شخص سيء الظن.

وعلى ذلك انتهى حديثنا، لأن هذا النوع من الجدل لا يجدي ولا يعود إلا بالكدر. مسكين أبي! عسى أن يوفق روبير، مع الزمن، إلى إقناعه. على أن روبير، في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تصرفه مع أبي، يظهر كل الأناة والمرونة واللباقة. إن تحدث إليه جهد في تجنب كافة الموضوعات التي قد تثير الجدل، وكذلك يفعل والدي، ويُشبّه روبير ما يجري بينه وبين والدي برقصة البيض؛ إذ يحتاج في حديثه إليه إلى مهارة بالغة ليتسلل بين دقيق المسائل دون أن يمس إحداها. ليت والدي يسمعه يتحدث؛ إذ يتحدث إليّ حين يكون هو غير موجود ! فإنني أشعر أنه أمام والدي يلاحظ نفسه ويمسكها حتى إذا ما تركها على سجيتها انطلق لسانه في أقوال جميلة بودي لو أدونها على الفور. وهو على ذلك يستطيع أن يكون مداعبًا ماهرًا ولعوبًا طريفًا، وكما قالت عنه إيفون دي بير :"إنّ الإنسان لا يمل الإصغاء إليه". قالت ذلك يوم الخميس الماضي، وكنا قد تناولنا الغداء مع روبير عند أبناء عمي، وخرج موريس دي بير ووالدي عقب الطعام مباشرة، فأخذ روبير يحدثنا طويلًا عن مدينة بربينيان وحياة الريف وما فيها من صغائر الخصومات التي أتيحت له مشاهدتها، كما حدثنا عن الوسط الذي عاش فيه، ويقول عنه إنه لا يقبل أن يحيا فيه من جديد، ولو ملك الكون أجمع. يؤسفني أنني أتعرف إلى هذا الجيل العجيب الذي كان منه مجتمع والديه؛ على أنني أدرك أن نفسًا ممتازة، كنفس روبير، لابد من أن تختنق في جوٍ كهذا؛ فأنه، رغبة في الفرار من هذا الجو الخانق الذي كان يعيش فيه، أراد في بدء الأمر أن ينتظم في سلك الرهبنة، لأنه بطبعه تقي كل التقى، ثم عاد فقدر أن في استطاعته أن يقوم بأكثر الخير إن هو ساهم في الحياة العامة. ويوافقه الأب بريدل على ذلك. وأنا أشارك الأب بريدل في أنه لا ينبغي ألا "يُحجب عن العالم نور كنوره" كما يقول الأب مستشهدًا بالإنجيل. إذا استمعت إلى روبير يتحدث، رجوت رجاءً لا سبيل إلى دفعه، أن يتاح للكثيرين الاستماع إليه؛ وإنني، في هذا الصدد، لا يمكنني أن أغار، بل أرى كفرًا مني أن أمتع بهذا الكنز وحدي، فإنّ هدف حياتي ينبغي أن يكون بذل ما في وسعي حتى تنتج مواهبه.

علينا أن نقوم معًا، في الأسبوع القادم ببعض الزيارات، ويسعدني أن أقدّمه إلى أصدقائنا.

26 أكتوبر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

منذ بضعة أيام وأنا أحيا حياة مضطربة ... كنت آمل أن يسعفني الوقت كل يوم للكتابة في هذه الكراسة ولكن ليس الوقت وحده ما يعوزني، فإنني، حتى في هذه اللحظات التي أختلي فيها، لا أصل إلى ذلك التأمل الروحي الذي يتيح لأفكاري أن تستقر. أنا غارقة في تيار جارف من الزيارات والتنقلات ومآدب العشاء والملاهي؛ وروبير، رغم حزنه، لا يخشى لحسن الاتفاق أن يرافقني إليها، وعلى حد قوله إن الشعور الصادق في غنى عن المصطلح من الأوضاع، ثم إنني أظن أن السعادة، التي يشعر بها لإحساسه بأنه محبوب، تطغى على حزنه. وهو يرافقني إلى المتعهدين، ويشتري لي أشياء عديدة، يحاول أن يقنعني بأننا سنكون في حاجة ماسة إليها، وهذا يسره كل السرور، كما أنه يُبدي كل الفرح في تدليلي حتى أنني لا أحاول منعه من ذلك أكثر مما يقتضي الأمر. ولقد اشترينا معًا خاتمًا أرق من الهوى لا يسعني إلا الإقرار بأنني سررت به تمامًا ولا أمل من الإعجاب به، ولكنه لما أراد أن يهديني أيضًا سوارًا رفضت رفضًا قاطعًا بالرغم مما أبداه لي ليزين لي قبوله. قال: إن شراء الحلي لا ينبغي اعتباره إنفاقًا بقدر ما هو "استثمار" وهذا هو اللفظ الذي استعمله. ثم وضح فكرته قائلًا إن الأحجار الكريمة والمعادن النفيسة "من المنتظر أن ترتفع قيمتها" واحتججت عليه بأن هذا لا يهمني مطلقًا، وعلى ذلك حدث نزاع قليل بيننا.

ولا ريب أنني لم أكن موفقة في مصارحته بأنني كنت أعجب بخاتمي نفس الإعجاب لو أنني جهلت قيمته الغالية، فلقد صاح على الأثر قائلًا:

- لكأني بك تفضِّلين رخيص الحلي.

ثم إذا هو، كعهدي به، وهذا ما يجعل حديثه إلى هذا الحد شيِّقًا، يطرح الموضوع للنظر "من الوجهة العامة"، وهي ما تعنيه دون سواها، فقال موضحًا رأيه:

- الناس، في أيامنا هذه، يقلدون اللؤلؤ أدق التقليد حتى ليُخدع به كل فرد، ولكن اللآلئ الحقيقية تمثل ثروته، وليس لغيرها إلا مظاهرها.

وهو يحرص على حضور تجارب تفصيل ثيابي، فإنه رفيع الذوق، ويسرُّه أن يتحدث إلى الخياطين وأن يجادلهم، وكذلك اخترنا قبعاتي سوِيًا. من العسير عليّ اعتياد أشكال القبعات الجديدة، ولكن روبير يرى أنها تلائمني كل الملائمة في حين

أنني إذا نظرت إلى المرآة لم أتعرف إلى نفسي؛ ولكنني لا أحسب إلا أنه أمر اعتياد وأنني، كما يقول، لن أعرف عما قريب وجه الفتاة التي كنت أحمله.

وعلى الإجمال، أرى أن كل ما ينتقيه جميل جمالًا فائقًا؛ ولكني أدرك أنه يحرص على أن أكون في ملبسي مشرفة له ثم إنه لم يعد لي حقّ بعد في أن أكون متواضعة. يعرف الأب بريدل أن قلبي ما يزال على تواضعه، ويقول إن هذا وحده هو أهم ما في الأمر. في كل يوم أدهش لنفسي من جديد ولا أكف عن الاعتقاد في أنني لست أهلًا لسعادتي... فتراني أحيانًا أخشى أن يكتشف روبير مدى غلوه في فضائلي؛ ولعلني، بما أكنه له من حب شديد، سوف أرقى إليه يومًا. أرجو ذلك من كل قلبي، ولن آل جهدًا حتى أبلغ مرادي: وهو يساعدني على ذلك في صبر كريم.

30 أكتوبر

روبير مدهش حقًّا... له علاقات بعدد كبير من المشاهير كما له معارف في جميع الأوساط، وهذا ما يتيح له مساعدة الذين يقصدونه. ولما كان معروفًا عنه أنه خدوم جدًا لم يتحرج في قصده من له حاجة. وهو يقول إن من أحكم الحِكم في هذه الحياة ألا تطلب أبدًا أمرًا لست واثقًا من نواله؛ ولكن لما كان الذين يخدمهم لا يرفضون له مطلبًا فإنه كان لا يطلب إلا عدلًا، وكان لذلك يحصل في غير عسر على كل ما يطلب... لروبير صلات بكل مكان، والأبواب كلها مفتوحة له؛ ما دخلت معه مكانًا إلا رأيت الأيدي تمتد إليه في الحال. ولقد طلبت إليه ألا يقدمني إلا إلى أصدقائه الحقيقيين، غير أنه من العسير متى عرفته قليلًا ألاّ تصبح له صديقًا. ولأنه مطلع على كل شيء تراه قادرًا على التحدث إلى أي كان، وفي أي موضوع، وكأنه مختص فيه. على أنني، إذا نشدت الحق، لا أحسب أن له أصدقاء حميمين، ولما سألته عن ذلك في اليوم الماضي، لم يجب مباشرة وإنما قال، بينما كان يضمني في حنو إلى صدره: "إنما الصداقة مدخل الحب".

وفعلًا، هذا قد اتضح اليوم لي أن صداقتي الشديدة "لروزيتا" و"إيفون" ما كانت إلا صداقة موقوته، وأن أول صديق حقيقي لي إنما هو روبير.

وهو يريد أن يفاجئ والدي بخبر الإنعام عليه بوسام الشرف، ولما كان يعرف

مدير مكتب وزير المعارف معرفة وطيدة فإنه يؤكد أن ذلك يسير عليه. وعندي أن والدي لن يرفض الوسام بل لقد يسرّ به سرورًا بالغًا. وأراه جميلًا من روبير أن يفكر والدي، وألا يطلب الوسام لنفسه، ولكنه لا يعلق على هذا كبير أهمية؛ إذ يعرف أنه سوف يحصل عليه متى شاء. حينما أسمعه يتحدث إلى الممتازين من الناس، الذين يقدمني إليهم، أتبين مدى جهلي، ولا أكاد أجرؤ على الاشتراك في الحديث مخافة أن أبدي ما يخجله. وقد طلبت إليه أن يكتب لي قائمة بأسماء الكتب التي يلزمني معرفتها، ومتى توفر لي الوقت... ولكن متى يكون ذلك؟ لقد قررنا أن نتزوج في نهاية شهر يناير وهذا يبدو لي بعيدًا كل البعد، ومع ذلك فإن الأيام تمضي في سرعة محيرة. وسوف نسافر بعد الزواج تؤا إلى تونس. لن تكون هذه السفرة للمتعة فحسب، إذ لدى روبير مصالح في مشروع زراعي يبغي أن يشرف عليه بنفسه. وهو يقول إن أكبر المسرات ما كان منها يعود بالنفع، كما أن عقله في نشاط مستمر، فهو لا يفتأ يطلب العلم ويعرف كيف يستفيد بكل ما يقع له.

وأكثر ما يشغل بالنا الآن مسألة السكن، ولقد شاهدنا عددًا كبيرًا من المساكن؛ ولكن ما من واحد عايناه إلا وكان محل اعتراض من أحدنا، من والدتي أو من روبير أو مني. ولعلنا قد نتفق مع مهندس، يعرفه روبير معرفة جيدة؛ وهو على وشك الانتهاء من بناء عمارة ذات موقع ملائم جدًا في حي لامويت تطل على حدائق شاسعة، وسوف نصبح مُلاكًا للدور الأخير في العمارة، مما قد يسمح لنا أن نرتبه كما نشاء، وهكذا نقضي ساعات في مناقشات عن التصميمات، وليس هناك ما هو أمتع من ذلك. ولما لم يكن روبير، في حياة والدته غنيًا فإنه كان يقنع بمسكن في دور أرضي بشارع "أنتان" أقام فيه ثلاث سنوات، ثم شعر شيئًا فشيئًا أن المسكين يضيق به، وكان مضطرًا إلى تناول طعامه في المطعم، مما كلفه وقتًا كثيرًا وأتعب معدته. ولقد طلبت إليه أن أرى مسكنه، وأحسبه كان خجلًا من أن يريني إياه؛ ومع ذلك فإنني دهشت إذ وجدته أكثر نظامًا مما كنت أتوقع، فجميع أوراقه محفوظة في ملفات أو مظاريف، وقد ابتكر طريقة فريدة للبطاقات تتيح له الحصول في الحال على كل المعلومات التي يحتاج إليها، وبهذه الطريقة يستطيع في يسر، أن يخدم الغير. وهو يرى أن الناس عامة يفتقرون إلى وسائل التنظيم، وأن دواليب المجتمع

مركبة تركيبًا سيئًا، ويحب أن يستشهد بشعر لافونتين: "إن أقل ما يفتقر إليه البشر هي الموارد." ويزعم أن أهم شيء هو أن نستثمر ما لدينا، وخاصة بالقياس إلى أولئك الذين رزقهم الله مثله مواهب عديدة. ولما ذكرت له أن مواردي أنا لا يُعتد بها، احتج عليّ، مؤكدًا في ظُرفٍ، أن كثيرًا من النساء اللاتي يتألقن في بيوتهن وفي المجتمع هُن أقل مني ذكاء؛ وهو يبدو صادقًا في قوله هذا، وأخشى حقًا أن يكون واهمًا وهمًا عظيمًا في تقدير من ستكون في المستقبل قرينته. عسى أن يحتفظ بوهمه هذا طويلًا. ومهما يكن من شيء فإنني أعمل على تثقيف نفسي ما استطعت، متى أتيح لي قليل من الوقت، كما أسعى يومًا بعد يوم لأن أكون أكثر جدارة به.

كنت أتوق لمعرفة هل استطاع أن يحتجز من وقته ما يتيح له أن يكتب يومياته، هو الآخر، كما تواعدنا؛ فطلبت إليه أن يريني إياها. أوه! لا أن يعطيني إياها أقرأها؛ وإنما كنت أريد فقط أن أراها. الحق أنني كنت أخشى أن يتركها ملقاة في أحد الأماكن دون تحفظ؛ ولكنه طمأنني قائلًا إن الدرج الذي يحتويها مغلق في عنايته، دائمًا، بالمفتاح. وأراني الدرج، ولكنه أبى أن يخرج منه كراسة اليوميات، حتى بعد أن وعدته بأنني لن أفتحها.

3 نوفمبر

بالأمس، تناول معنا العشاء المصور بورجفيلسدوروف؛ وهو على شناعة اسمه هذا الذي لا أدري أأكتبه صحيحًا، ليس بألماني ولا بيهودي؛ إنما هو فتى مسكين، مجتهد، جدير بالتقدير. ولقد أعانه روبير كثيرًا، فتراه يزحم مسكنه الصغير بشارع انتان بكدس من لوحات غير قابلة للبيع، يشتريها إحسانًا منه ليساعده دون أن يمس إحساسه. ولقد قلت لروبير إنني أراه غير متبصر في تشجيعه شخصًا خائبًا، وأنه كان الأحرى به أن يشجعه على أي عمل آخر خلاف التصوير؛ ولكن يظهر أن الفتى المسكين لا يتأتى له أن يؤدي عملًا سواه، وفضلًا عن ذلك، فإنه يعتقد أنه موهوب جدًا. أما روبير، فإنه يصر على الإقرار له "ببعض النبوغ". وقد حدث بيننا شيء من النزاع في هذا الشأن. وحسبك أن تشاهد قشرة لوحة من لوحاته حتى تحكم أن بورجفيلسدوروف لا دراية له بفنه، بل ليست لديه أية فكرة عما ينبغي أن يكون

عليه فن التصوير؛ ولكن روبير يستشهد بعدد كبير من الفنانين الذين كان الناس يعتبرونهم لا دراية لهم بفنهم، ثم أصبحوا من المشاهير. ثم بعد أن أبدى شيئًا من الغضب، لأنني لم أتمكن عن صدق من استحسان ما كان يراه حسنًا، أردف في لهجة حازمة:

- على أية حال، ثقي بأنني ما كنت أرتبط به إن كان لا قيمة له. ورغمًا عن قوله هذا، فإن روبير لا يجرؤ على أن يعلق فوق جدران مسكنه هذه الصور الفظيعة، وإنما هو يكدّسها في خزانة كبيرة، حيث اكتشفتها لما أجاز لي أن أنقب في كل مكان عنده. ولقد كانت لهجته في كلامه هذا قاطعة، وهذه أول مرة يخاطبني فيها بتلك اللهجة حتى جرى دمع عيني، ورآه روبير، فرق قلبه في الحال، وقبلني قائلًا:

- اصغ إلي، أتريدين أن أعرّفك إياه؟ ستحكمين بنفسك أهو غبي كما تظنين.

وقبلت ذلك، وهكذا دعوناه.

وبعد، ها أنا أتقدم بالاعتذار إلى روبير، فإن بورجفيلسدوروف كاد يبدو لي لطيفًا، وأقول "كاد" لأنه، رغم كل شيء، هناك ما يصدمني منه، وذلك هو قلة اعترافه بالجميل، إذا لم يحسن أن أقول جحوده التام؛ فأنه يتناسى ما هو مدين به لروبير، بل إنه ليبدي له شيئًا من عدم الاحترام. أنا أعلم أن ما يقوله لا خطر له، كما أن في لهجته الصادرة عن القلب ما يخفف من حدة لفظه، ولقد سمعته أكثر من مرة يصيح: "يا صاحبي إن ما تقوله واه، لا أساس له" مع أن روبير يكون قد أبدى ملاحظة من أصوب الملاحظات، وربما كان صاحبنا لم يُتم حتى الإصغاء إليها. وعلى نقيض ذلك، كنت تراه يوافق على كل ما كان يقوله أبي، وذلك في تزلف يحليه بشاشة وأدب جم، حتى تكاد تعتقد في صدقه، حتى أن والدي في آخر الأمر كان يغمره السرور.

كنت أتوقع أن أرى شخصًا بوهيميًا، ولكنني شاهدت سيدًا حسن البزة، بل إلى حد ما، أنيقًا في ملبسه، مهذبًا، معتنيًا بنفسه، ومن المؤكد أنه ذكي. وهو يروي، في أسلوب فاتن، كثيرًا من الحكايات المسلية. وحديثه قد يكون أكثر مما سمعت طلاوة، لولا أن دأبه المناقضات.

وأنت لا تدري قطعًا أيهزأ بك في حديثه أو لا يهزأ؛ مثال ذلك، يزعم أنه يفضل رفاييل وبوسان على غيرهما من المصورين، في حين أن تصويره الخاص لا يوحي بذلك إطلاقًا. وجملة القول أننا قضينا معه ليلة طيبة، وأعتقد أنه يسرني أن أراه في المستقبل. ولكن بين هذا وبين أن يقوم بعمل صورة لي كما طلب إليه روبير فجأة...! لم نكن نتوقع، لا أنا ولا هو، مثل هذا الطلب، حتى أننا مكثنا برهة لا نعرف ما نقول؛ فكان في تصرفه هذا طائشًا. وأرى أنه كان في وسع روبير أن يستشيرني قبل أن يوجه إليه هذا الطلب؛ ولئن كان قد فعل، لكنت ذكرت له أنني سوف أكون مشغولة إلى يوم الزفاف، وأنه لن تكون لدي فسحة من الوقت أجلس إليه فيها ليصورني، وأنني مضطرة إلى إرجاء التمتع بهذه "المتعة" إلى حين عودتنا من رحلة شهر العسل. وهذا ما أجبت به فعلًا لما أن طلب إليّ بورجفيلسدورف تحديد موعد الجلسة الأولى، مدفوعًا بإيحاء روبير؛ وقد أكد لنا أنه يكفيه ثلاث أو أربع جلسات، يدون فيها بعض الملاحظات، ثم، في أثناء غيبتنا، يضع الصورة معتمدًا على ذاكرته؛ فإذا ما عدنا لم يلزمه بعد ذلك إلا إجراء بعض التنقيح الذي يسبغ على الصورة شكلها النهائي. الحق أنني حين أفكر في الصور الشنيعة التي صورها، لا أجد ما يدفعني لأن يصورني؛ ومع ذلك فقد اتفقنا على يوم لزيارة محل عمله.

7 نوفمبر

تنقلات لقضاء الحاجات، استقبالات، زيارات. ليس لدي وقت لكتابة يومياتي، ولا وقت للمطالعة، ولا للتفكير الهادئ، ولا وقت لأن أشعر أنني سعيدة. وأشد ما يؤسيني أن كل هذه العوامل تتضافر على أن تخلق مني امرأة أنانية. فلا موضوع كل يوم إلا موضوع "ما يسرني"، وإلا "تزيني" وإلا "راحتي" وإلا ما أستسيغ. كأن في مقدوري أن تكون لي بعد الآن راحة إلا راحة روبير، وأن أستمرئ إلا ما يستمرئ روبيرا بل إن الأمر الذى سرني كل السرور، لدى شرائنا غرفة الاستقبال الصغيرة، هو أن روبير اختار أثاثها بنفسه. ولقد أهداني خزانة صغيرة للأوراق الخصوصية، بديعة الصنع، يمكنني أن أودعها خطاباته ويومياتي؛ وسيحتفظ بها البائع إلى أن ننتقل إلى مسكننا. وإني لأتلهف إلى الشعور بأنني في بيتي، وأن يغدو في إمكاني أن أسترد نفسي بعض الشيء، فإن هذه الأيام التي تمضي في عبث ضائع تبدو لي فارغة؛ بل

يلوح لي أيضًا أنني أتفقد روبير فلا أجده كما أفتقد نفسي. فإنني وإن كنت لا أتركه بحال، لا يتاح لي مع ذلك أن أكون بمفري معه، على أن ابتسم للجميع وأن أجيب على أسئلة سخيفة، وأن أعرض فرحي عرضًا، وأن أمثل نوعًا من تمثيلية السعادة. كل هذه المشاغل المتصلة تكاد تحول بيني وبين السعادة ذاتها لو أنني اعتبرت كل هذا العبث جدّيًا، ويدهشني أن يُظهر أقل الناس اهتمامًا بأمرنا اقتناعهم بسعادتنا، وثقتهم فيها، ويكلفون أنفسهم ما يكلفونها لبيان مدى عطفهم علينا، وعلي أن أرضى بهذا العبث، وأن أظهر أنني "سعيدة بمعرفة" أناس لا قيمة لهم البتة، ولا لطف فيهم.

رأيت إيفون مرارًا في هذه الأيام الأخيرة. ولقد شعرت، وأنا أحادثها، كيف أنه من اليسير أن تتحول السعادة إلى إثرة. وما يخدعني عن نفسي هو أنني أفكر في روبير أكثر مما أفكر في شخصي؛ على أنني، إذ أفكر فيه، إنما أفكر فيما يميل إليه قلبي، وليس غرضي، ولا شك، أن أحبه أقل مما أحبه، وإنما غرضي ألا أقصر حبي عليه. كنت أعمى عن كل شيء ما عداه. لم أتبين ذلك إلا يوم الخميس الماضي عندما شاهدت ما كان باديًا على وجه إيفون من نحول، وتفتحت عيناي فجأة أو بالأحرى تمزق الغمام الذي كنت أعيش فيه. لقد بدا لي أنها تغيرت جداً حتى أنني خشيت عليها وألحفت في السؤال وانتهيت إلى حملها على الاعتراف بأسباب ما يبدو عليها من حزن فظيع. لقد اكتشفت إيفون حديثًا أن الشاب الذي كنت أعرف أنها متعلقة به، والذي كانت شبه مخطوبة له، يخونها ويعيش مع امرأة أخرى.

سألتها: لِمَ لمْ تذكري لي ذلك من قبل؟

فأجابت: كنت أخشى أن أعكر عليك ما أنت فيه من سعادة. وخجلت في الحال من هذه السعادة التي تشبه ملكًا خاصًا غلق على بابها هذا الإعلان القاسي "ممنوع الدخول" لا ، أنا لا أريد سعادة غير رحيمة. إيفون التي تتألم من أنها لا تشعر بصداقتي، هي في حاجة إلى معونة، هي تخشى ألا يكون في مقدورها أن تكف عن حب ذلك الذي أصبح غير أهل لحبها، لذلك تبحث عن عمل يتيح لها أن تنسى حزنها قليلًا، وتود لو تقوم بعمل ما في أحد المستشفيات. هذه فكرة تبدو لي طيبة حتى ولو كان هذا العمل مؤقتًا. سأسعى إلى حمل روبير على الاهتمام بأمرها، دون

أن أبوح له بسر رغبتها في هذا العمل كما وعدتها بذلك. وروبير يظهر كل الاهتمام بها، وهو يعرف معرفة وثيقة رئيس أطباء مستشفى لانك، ويمكنه أنه يوصيه بها وهو مطمئن تمامًا... فلا شك عندي، لما هي عليه من إخلاص وذكاء ومهارة، أن في مقدورها أن تؤدي خدمات كبيرة.

14 نوفمبر

ما ألطف روبيرا! ما كدت أفاتحه برغبة إيفون في العمل حتى خاطب الدكتور مارشان تليفونيًا وتواعد معه على العشاء مساء الغد في مطعم "البرج الفضي" الشهير بمطبخه.

قال لي وهو يضحك: لا يمكننا أن نعرف كل ما يسعنا الحصول عليه بأكلة طيبة.

وهو يؤكد أن حضوري هذا العشاء فيه منفعة لها، وأقنع والدي بالسماح لي بمرافقته. وقد سرني ذلك كل السرور، لأن كل ما نعمله سويًا، أنا وروبير، يلذ لي؛ ولأن في موافقة والدي على السماح لي بمرافقته ما يدل على أنه أصبح يرى أمر زواجنا على غير ما كان يرى من سوء؛ ثم، أكاد لا أذكر أنني سبق أن تناولت الطعام في مطعم قط، وفضلًا عن ذلك لعل في حضوري هذا العشاء ما يعود بالفائدة على إيفون. يزعم روبير أن الدكتور مارشان بطبيعته لا لين فيه، ولكنك تستطيع أن تؤثر فيه بالطعام الطيب، وهو لذلك يفكر في أن يعنى بألوان الطعام، كثيرًا ما أخشى أن أغضب روبير باستعمالي في حديثي عبارات وصيغًا يقول عنها إنها غير صحيحة، وقد ألفت استعمالها لاستمرار سماعها ممن حولي. إذا كنا على انفراد بين لي روبير خطئي وصحح لساني، وأما إذا وجدنا في جماعة فكثيرًا ما أصمت مخافة أن تظهر فجأة على محياه هذه العلامة الصغيرة التي تدل على تبرمه، والتي لا يتبينها، على أية حال، أحد سواي. وما تكاد تبدو هذه العلامة حتى أتبين في الحال أنني لم أعبّر كما ينبغي. ومع ذلك فلابد لي من أن أتحدث إلى الدكتور مارشان، وأنني لأرتعد من ذلك سلفًا. وأنا أعرف نفسي، إن لاحظتها أكثر مما ينبغي فقدت ما لدي من بساطة وسهولة أداء. ولقد رجوت روبير ألا يكثر من النظر إلي في أثناء هذا العشاء، فأنني أقرأ في نظرته كل ما يفكر فيه، وأقل ظل من الاستنكار ألاحظه على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

محياه يحطمني تحطيمًا. ومثالًا لهذا النوع من العبارات التي تسخطه أشد السخط، استعمالي لفظة "كثيرًا" بعد كلمات لا تتحمل "الكثرة" على حد قوله الحق. قبل أن يوضح لي خطئي كنت أقول في طلاقة "أنا جائعة كثيرًا" أو "أنا ناعسة كثيرًا" أو "أنا خائفة كثيرًا" قال لي: لم لا تقولين أيضًا " أنا شجاعة كثيرًا" و"عندي صداع كثيرًا"

أظن أنني أدرك الآن وجه التفرقة وأعترف أنني لم أفكر فيه قط من قبل؛ ولكنني الآن أكاد لا أجرؤ على استعمال لفظة "كثيرًا" مخافة الوقوع في الخطأ، ثم إنه لا يتاح لنا دوامًا التفكير في أن الكلمة السابقة اسم أو نعت أو ظرف أو غير ذلك. وأرى أن روبير يتطرف في ذلك على أية حال تطرفًا غريبًا. إنه لا يريد أن أقول :"إنني أغضبته كثيرًا"، مع أن لفظة "أغضبته" ليست باسم. ولقد أراد أن يفسر لي أنها ليست نعتًا كذلك، فاختلط عليه الأمر لأنه بعد أن قال: "ستفهمين في الحال ..." إذا به فجأة يرجئ هذا الدرس الصغير إلى يوم آخر، ومع ذلك فأنني أريد أن أصل إلى فهم هذه القواعد اللغوية وأن آلف تطبيقها مادام روبير يعتبر أن واجب النساء الحرص على صفاء اللغة؛ لأنهن أكثر محافظة من الرجال، ولأن في إغفالهن لحسن الأداء تقصير منهن في واجب من واجباتهن.

16 نوفمبر

صاح والدي "بخ! بخ!" وهو لفظ يألفه ويروقه استعماله، "إنكم لا تضنون على أنفسكم بشيء!" كان ذلك عندما علم أننا تناولنا العشاء في مطعم "البرج الفضي"، ولقد ذكر أنه لم يذهب إلى هذا المطعم قط؛ ولكنه يعرف أنه المطعم الذي لا يذهب إليه إلا الذواقة؛ وألزمني سرد ألوان الطعام لونًا لونًا. والواقع أن الطعام كان جيدًا جدًا، أما المشروبات فكانت لذيذة كل اللذة، على قدر ما استطعت أن أحكم به من تلك الابتسامات التي كانت تمر على شفاه روبير وضيفنا وهما يتذوقانها، لأنني شخصيًا ليست لي بها دراية تذكر. ولكن يا له من رجل فظ هذا الدكتور مارشان!

لقد صاح، لدى أول كلمات فاه بها روبير عن إيفون: ألا لعنة الله على الآنسات اللاتي لا عمل لهن.

كنا وقتئذ على وشك الانتهاء من العشاء وكان روبير قدر أن ضيفنا قد "نضج"، ثم أردف في لهجة متبرمة زادت أقواله غلظة وخشونة.

- على كل حال، ليست هذه أول آنسة تعرض نفسها على هذه الصورة. ولقد رفضت رفضًا باتًا عدة عروض للخدمة مماثلة. ليس لي ما أقوله عن الراهبات فإنهن، على ما يظهر، لم يعدن من النساء. أما آنسات المجتمع الراقي فإني أعوذ "بأسكولاب" من شرهن! قل لصاحبتك، عن لساني أنه ليس عليها إلا أن تتزوج؛ وأؤكد لك أن هذا أفضل ما تستطيع المرأة أن تفعله. ثم التفت إليّ وأضاف وهو يتكلف الابتسام:

- هذا ويسرني أن أقول هذا القول أمامك يا آنستي؛ إذ أراك تفكرين أيضًا مثلما أفكر.

فتسلحت بكل ما أوتيت من شجاعة، شاعرة أن مستقبل إيفون رهنٌ بما قد أبدي، وفي جرأة قلت له "لديها من الأسباب ما يمنعها من التشبه بي." ولكن شجاعتي تراجعت أمام بسمته الساخرة وأمام قوله:

- آه! حقًا...؟ بينما رفع حاجبيه مستفهمًا.

كنت على وشك أن أحتج بأنه لا يتاح لكل امرأة أن تأمل في حظ كحظي، وفي لقاء رجل كروبير، ولكنني قلت في فتور "ما كل زواج بسعيد". فأجاب مارشان، على الفور :"لئن لم يكن كل زواج سعيدًا فإن عدم الزواج دائمًا مرير"، ثم أردف في سرعة وهو يقهقه، وقبل أن تتاح لي الفرصة لسؤاله عن سبب بقائه إذن أعزبًا للآن، قال :"هذا على الأقل فيما يختص بالنساء". ثم، لما لاحظ أنه في قوله قد جاوز، ولا شك، الحد المعقول أضاف في لهجة قاطعة:

- قولي لي، يا آنسة، أحقًا أن صاحبتك ترغب رغبة شديدة بالعمل في إدارتي؟

وأجبت دون تبصر: أنا أعلم أنها ترغب في ذلك كثيرًا، وما كدت أنطق هذا اللفظ الأخير حتى شعرت بنظرات روبير تسدد إليّ تسديدًا، وتنبهت إلى خطئي اللغوي، فلم أجسر بعد ذلك أن أقول شيئًا. وأتاح صمتي للدكتور مارشان الاستمرار في أسئلته. قال:

- وفنون التسلية؟ فيم تنفع فنون التسلية؟ لِم ابتدعت إن لم تكن ليشغل بها العاطلون؟ فلتكن إذن نصيحتك لصاحبتك أن تشغل نفسها بالرسم المائي أو أشغال الإبرة، مادامت تأبى أن تعطينا أطفالًا كما يحتمه عليها واجبها، ولو أنه ليس في استطاعتنا أن نحملها في حياء على ذلك.

ولا شك أن عوارض السخط الشديد على أقواله قد تجلت في محياي؛ لأنه حوّل الحديث في الحال بعد أن صرّح بصورة قاطعة:

- على كل حال، لو أنني كنت راغبًا في تشغيل صاحبتك ما استطعت لأنني لن أجد لها عملًا، ثم إن لدينا من الموظفين أكثر مما تقضي به الحاجة، وأنا لا أطيق أن أرى إلى جانبي أناسًا مكتوفي الأيدي ينظرون إليّ ولا يعملون.

وإذن، فقد فشل روبير، ولم يفز، كما يقولون، بأكثر من قيمة ما أنفق، وهذا ما يسميه "انخداعًا". وكنت تستطيع أن تحكم على مدى سخطه مما كان يبدو على ملامحه. ولقد كان لهذا الفشل وقع أليم في نفسي؛ لأن روبير لم يبذل ما بذل من اهتمام بإيفون، ولم يتقدم بما تقدمه، إلا بدافع الحب. لم أخف عنه رأيي في الدكتور مارشان، لعله عالم كبير كما يؤكد إلا أنه فظ؛ وأنا أوثر ألا ألتقي به في المستقبل، بالرغم مما قاله لي روبير وهو عائد إلى المنزل بعد العشاء، إذ قال: "أنا لا اعتبرني مغلوبًا".

لو أن إيفون كانت تنتظر مكافأة أو أجرًا على خدماتها! ولكن لديها ما يكفيها للعيش، وليس في طلبها التماس كسب يشق عليّ أن أبلغها أن هذا الطلب قد رفض، وأنهم في غنى عن إخلاصها المتفاني...

لأن يكون المرء عديم النفع، أن يعرف وأن يشعر بأنه عديم النفع...، أن يحسّ أن لديه في نفسه كل ما يلزم للمساعدة والنجدة، وأن في وسعه أن يعمل ليشيع الفرح من حوله، ثم لا يجد سبيلًا إلى تحقيق ذلك!

"لسنا في حاجة إليك يا آنسة".

إنّ هذا لفظيع، وإني لأرثي لإيفون من كل قلبي، وأشكر الله، أعظم الشكر، أن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جنبني هذه الآلام، كما أشكر لروبير أنه اختارني. وإنني لساخطة أشد السخط إذ أفكر في أن عددًا كبيرًا من النساء، ممن لم يحظين بحظ مثل حظي، يرين أنفسهن وقد حرمن حق الاشتراك بحظهن في الحياة، مع أن علة وجودهن في هذه الحياة أن يستثمرن ما يملكن من فضائل ومواهب. وأنني لساخطة أشد السخط من أن يكون ذلك كله معلقًا برضى وهوى رجل من الرجال. وأنا لذلك أعاهد نفسي عهدًا وثيقًا إن أنا أنجبت بنتًا يومًا ما، ألا أعلمها فنًا من فنون التسلية هذه التي كان يتحدث عنها الدكتور مارشان بهذا القدر من الازدراء الساخر، بل لسوف أعلمها تعليمًا جديًا يؤهلها لأن تكون في غنى عن موافقة تحكمية، أو أفضال من الغير، أو حظوات.

أعلمُ أن كل ما أكتبه هنا سخيف، ولكن الشعور الذي يملي علي ما أكتب ليس بسخيف، وأراه أمرًا طبيعيًا أن أتنازل عن استقلالي بزواجي من روبير، ولقد برهنت على استقلالي في الرأي بزواجي هذا، بالرغم من معارضة أبي، وينبغي أن تكون كل امرأة حرة، على الأقل، في اختيار نوع العبودية التي تلائمها.

17 نوفمبر

يهتم روبير بجمع الأموال لإنشاء جريدة أدبية يتولى هو إدارتها السياسية. لن تصدر الجريدة إلا بعد عودتنا من تونس، أي في الربيع القادم، ولكنه يحسن أن يهيئ كل شيء قبل سفرنا وسيكون هذا السفر بعد زواجنا مباشرة، وذلك ... عما قريب.

إن ما يبذله روبير من عناية بي لا يضير نشاطه، وإنني لأحمد الله على ذلك؛ فلو أن روبير قد جعل مني هدف حياته الوحيد، لكنت أحببته دون حبي الآن له، فما وجودي إلى جانبه إلا لأكون له عونًا، لا أن أحول بينه وبين مهنته. وينبغي أن يوجه أنظاره إلى أبعد مني.

19 نوفمبر

كل يوم يطالعني بسرور جديد. وقد كانت دهشتي كبيرة هذا الصباح عندما أطلعني روبير على كتاب من الدكتور مارشان كان قد وصله منذ هُنيهة. لعله نسى ما قال لنا الليلة الماضية، أو لعله خجل مما قاله؛ إذ يطلب في خطابه أن تذهب

إيفون لزيارته في المستشفى حتى يبحث معها، كما يقول، ما يمكنه أن يصنع بها، أو ما يمكنه أن يؤديه من أجلها.

لم أر إيفون بعد ذلك العشاء، ولذلك لن أجد ما يدعوني إلى التحدث عن ذلك الأثر السيء الذي خلفه في نفسي لقاؤنا الدكتور مارشان؛ وعليه فلن أبلغها إلا النتيجة النهائية السعيدة لهذا اللقاء.

22 نوفمبر

لقد أظهرت هذا الصباح ضعفًا كبيرًا. ولكن كيف السبيل إلى رفض أمر يطلبه مني روبير؟ كنت في غرفة الاستقبال الصغيرة، وإذ كنت لا أنتظر أن يبكر في حضوره على هذا النحو، أخرجت كراسة يومياتي، وتأهبت لأن أروي فيها كيف قضينا سهرتنا في مشاهدة الرقص الروسي. وإذا بروبير يدخل فجأة ويطلب إليّ أن أريه ما كنت أكتب. أجبت، ضاحكة، إنه لن يرى ذلك إلا بعد وفاتي، كما تعاهدنا. فقال وهو يضحك إنه في هذه الحالة سوف يجازف بألا يراه أبدًا؛ لأنه من الطبيعي أن يموت هو قبلي، وفضلًا عن ذلك فإنه لم يكن يعتبر عهدنا هذا جديًا، وإن في ذلك لمقاصة بيننا، ثم إننا، من ناحية أخرى، قد اتفقنا على ألا يخفى أحدنا شيئًا عن الآخر. ومهما كان الأمر، فإن رغبته في قراءة يومياتي كانت شديدة جدًا، وقد أفسد عليه هناءه إن لم أبادر فورًا إلى إرضاء رغبته... وقصارى القول، أنه ألح وألح وأبدى إصرارًا في رقة بالغة حتى قبلت طلبه، ولكن على أن يطلعني من جهته على يومياته. فوافق على ذلك راضيًا، وتركت الحجرة حتى أدعه يقرأ كيفما شاء.

ولكن الآن قد زال السحر وهذا تمامًا، ما كنت أخشاه لئن كنت ما أزال أكتب هذه السطور، فما ذلك إلا لأوضح لِمَ هي آخر ما أدونه في هذه الكراسة. بديهي أنني ما كتبت هذه اليوميات إلا من أجله؛ ولكن لم يعد في مقدوري أن أتحدث عنه كما كنت أتحدث من قبل، هذا إذا لم يمنعني من التحدث عنه إلا الحياء فحسب وليس أمامه، بعد اليوم، سوى أن يطلع كذلك على هذه السطور التي لن أحاول إخفاءها عنه.

لا. ليس حبي له بأقل مما كان، ولكنه لن يعرف ذلك فيما بعد. بل سيعرفه الآن وفي الحال. (لعل هذه العبارة لا تعني شيئًا إلا أنها بدرت مني على السجية)

23 نوفمبر

يا للأسف! عليّ أن أضيف أيضًا هذه الحاشية.

كدرني اليوم روبير أشد الكدر، وهذا أول كدر يأتيني منه، ويؤلمني أن أدون هنا ما يكدرني؛ لأنني كنت آمل ألا تحوى هذه الكراسة إلا ما يعبر عن فرحي، ومع ذلك ينبغي أن أدوّنه هنا. وما أكتبه أرجو أن يقرأه، لأنني لما ذكرت له ذلك، من برهة وجيزة، رفض أن يعتبرني جادة في قولي.

كنت قد ذهبت إلى مسكنه وأنا أحسب أنه سوف يطلعني بدوره على يومياته، كما وعدني بالأمس، قبل أن أناوله يومياتي ليقرأها؛ فإذا به يعترف أن هذه اليوميات لا وجود لها، وأنه لم يكتب منها حرفًا، وأنه لم يدعني أعتقد طيلة المدة أنه يكتبها إلا ليشجعني على الاستمرار في تدوين يومياتي، اعترف لي بهذا كله وهو يضحك، ثم إذا به يدهش ويغضب لأنني كنت لا أضحك ولا أستسيغ مكره. ولما كنت، على النقيض، أبدى أسفي وكدري، وصارحته اللوم، لا لأنه لم يكتب هذه اليوميات، فإنني لم أدرك أن وقته لا يتسع لكتابتها، أو أنه لم يجد رغبة في تدوينها؛ وإنما لأنه تركني أعتقد أنه يكتب، ولأنه مكر بي، فقد رأيته عندئذ يزعم أنني سيئة الخلق. ثم أخذ يجسم تجسيمًا ما كان في ذاته أمرًا عديم الأهمية، دون أن يحاول أن يفهم أن ما كان يؤسيني فعلًا هو أنه كان ضئيل التقدير لأمر كان له في نظري عظيم الاعتبار، وأنه كان يستخف كل الاستخفاف بما يراني أتمسك به تمسكًا قلبيًا. ولو أنه سار على هذا النحو لما أصبح هو المخطئ في عدم تمسكه بوعده، بل لكنت أنا الخاطئة إذ أشكو. ومع ذلك لا أجد أي سرور في أن أكون محقة قبله، وكنت أوثر لو أنه كان في وسعي أن أصوب رأيه على أنني كنت أود لو أنه، على الأقل، أظهر شيئًا من الأسف عما سببه لي من كدر شديد.

وإني، وأنا أشكو على هذا النحو، أراني ناكرة جميله، وأطلب منه المغفرة عن ذلك. وإلى هنا أقف هذه اليوميات التي لم يعد لها من داعٍ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجزء الثاني

بعد عشرين سنة

أركاشون في 2 من يوليو سنة 1914

اصطحبت معي هذه الكراسة كما تصطحب النساء، إذا ما ذهبن للاستشفاء، شغلًا من أشغال الإبرة يملأن به أوقات الفراغ، على أنني إن كنت أعود اليوم للكتابة، فما ذلك والأسفاه من أجل روبير، إذ إنه يعتقد أنه أصبح يعرف كل ما يمكنني أن أشعر به أو أفكر فيه؛ ولئن كتبت فلكي أستعين بالكتابة على ترتيب فكري بعض الترتيب، وأحاول استيضاح ما يجري في نفسي، راغبة في معرفة:

ما أجازف به

وما أصبو إليه

كما تقول إيميلي بطلة كورني.

حينما كنت شابة، لم يكن في إمكاني أن أجد في هذا الشعر سوى طنطنة جوفاء؛ كنت أراه سخيفًا، فهكذا نرى - في كثير من الأحيان - كل ما لم نحسن فهمه، وهكذا يراه اليوم ابني وتراه ابنتي وأنا أعلمهما إياه. ما من شك في أنه لابد لنا من أن نكون قد عركنا الحياة بعض الشيء حتى ندرك ألا أمل لنا في أن نبلغ ما نصبو إليه إلا إذا جازفنا فعلًا بما يتمسك به القلب أحيانًا كل التمسك.

ما أصبو إليه اليوم هو خلاصي، وما أجازف به هو تقدير الناس وتقدير ولديّ. فأما الناس، فإني أحاول أن أقنع نفسي بأنني لا أحرص عليه. وأما تقدير ولديّ، فهذا ما أحرص عليه أكثر من كل عداه. أشعر بذلك وأنا أكتب هذه السطور، بما لم أشعر بمثله من قبل، حتى أنني لأتساءل أكنت، قبل كل شيء، لا أكتب هذه السطور إلا من أجلهما. أود، إن أتيح لهما يومًا قراءة هذه اليوميات، أن يجدا فيها ما يبرر مسلكي، أو في القليل ما يفسره، فلسوف يضطران إلى الحكم عليه حكمًا قاسيًا، بل إلى التنديد به.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أعرف ذلك، ولا أكف عن ترديده في نفسي. أعرف أنني بترك روبير سوف أحمل نفسي، في ظاهر الأمر، الخطأ كله ويمكنني، دون أن أعلم شيئًا من القوانين، أن أخشى من أن امتناعي عن الاستمرار في العيش معه تحت سقف واحد، قد يترتب عليه سقوط حقوق الأمومة عني. سوف يرشدني المحامي الذي سأستشيره لدى عودتي من باريس، إلى سبيل تلافي هذا الأمر، فإنني لن أتحمله، ولا يسعني قبول التفرقة بيني وبين ولديّ، والسبيل الوحيد الذي يعفيني من الانتهاء بي إلى بغضه هو ألا أراه أبدًا. أوه! وخاصة ألا أسمعه... وأني، وأنا أكتب هذا، أشعر تمامًا بأنني بدأت أبغضه، ومهما بدت هذه الألفاظ لعينيّ فظيعة، فإنه ليخيل إليّ أنني ما عدت إلى فتح هذه الكراسة إلا لحاجة في نفسي أردت كتابتها؛ وذلك لأن ما أكتبه لا أستطيع أن أقوله لأحد. وأذكر أيام كانت إيفون لا تجرؤ على التحدث إليّ مخافة أن تعكر صفو سعادتي. والآن عليّ أنا ألا أتحدث! ثم هل هي تفهمني؟..... بل قد يفهمني زوجها، زوجها الذي كنت أراه في أول الأمر، أنانيًا كل الأنانية، فظًا كل الفظاظة، ثم أراه اليوم كريم النفس. ولقد فاجأني مرارًا ما في لهجة هذا الرجل، الممتاز حقًا، من ازدراء لروبير يتعذر وصفه. من ذلك مثلًا، ما حدث عندما أخذ روبير يروي حوارًا، أسند فيه الدور الجميل إلى نفسه بطبيعة الحال، ثم أضاف:

- هذا ما اعتقدت أنه يجب عليّ أن أقوله.

فلقد سأله الدكتور مارشان: وما أعتقد هو أنه يجب أن يقول؟

عندئذ ظل روبير برهة كالمأخوذ وهو يشعر أن مارشان يقضي بحكمه عليه، وذلك بفيض إلى نفسه كل البغض. وفي ظني أن مارشان، إن كان يمسك نفسه عن الهزء به، فإنما ذلك احترامًا لي؛ فلقد رأيته مرارًا لاذعًا جدًا إزاء ما يظهره روبير من صنوف من الاعتداد بالنفس لم يكن يسع مارشان أن يمسك نفسه عن تحطيمها. وأجزم أنه لا يخدع بعبارات روبير الطنانة؛ بل لقد يجري بي الفكر إلى أنه لولا وده لي لانقطع عن عشرته من زمن طويل. في هذا المساء أحسست كأنه فُرج عني عندما أدركت أنني لست الوحيدة التي تستفزها تلك العادة، التي ألفها روبير بقوله دائمًا: "اعتقدت أنه كان عليّ أن أفعل" وذلك في بساطة، على أثر تصرف يكون قد أتاه في

الواقع عن رغبة في إتيانه، أو اغتنام لفرصة سانحة، وهذا هو الغالب. وهو، في هذه الأيام الأخيرة، يجود عبارته فتراه يقول: "اعتقد أن واجبي يفرض عليّ..." كأنه غدا لا يأتي أمرًا إلا مدفوعًا بأسمى الاعتبارات الخلقية. وله أسلوب في الكلام عن الواجب يبغضني في كل واجب، وطريقة في استخدام الدين تجعل كل دين مثارًا للريبة، ووسيلة في التلاعب بجميل العواطف تجعلها، إلى الأبد، بغيضة إلى نفسك.

3 يوليو

اضطررت إلى وقف القلم لكي أصطحب جوستاف إلى الطبيب. لله الحمد! خرجت من الاستشارة مطمئنة تمامًا. أشاع الدكتور مارشان القلق في نفسنا حتى أننا، لحسن الحظ، تعهدنا الداء قبل فوات الوقت، ويؤكد الطبيب الذي يتعهد جوستاف عن قرب هنا، أننا لن نخش بعد الآن حتى أية نكسة، ويقدر أن جوستاف سوف يستطيع العودة إلى مدرسته بعد الإجازة، بحيث إن هذا الإنذار لن يسبب له عطلًا في دراسته. وأنا قليلة الرضا بما كتبته أمس، والظاهر أنني تركت قلمي يجري لحاجة إلى الشكوى، قد تبدو تافهة، ما لم أبادر إلى توضيحها أحسن مما فعلت. لكلّ منا عيوب، وأنا أعرف أن الانسجام لا يمكن أن يسود في أسرة دون تسامح، بل حتى دون بعض التنازل من الطرفين. وعيوب روبير، لمَ أصبحت إلى هذا الحد أجسمها فلا أطيقها؟ أيكون سبب ذلك أن ما يستفزني الآن هو ما كان يخدعني فيما مضى ويفتنني، بل ما كنت أراه أحق الأشياء بالثناء؟.... أوه! أراني مضطرة إلى الاعتراف بأنه، إن كان أحد قد تغيّر فعلًا، فليس هو الذي تغيّر بل أنا. هذا حكمي أكنّه، وإنه ليفسد عليّ حتى أسعد الذكريات. آه! من أي سماء هبطت! وحتى أفسر لنفسي هذا التغيير، استعدت قراءة ما كتبته في هذه الكراسة من عشرين عامًا. لقد تعذّر عليّ أن أتعرف إلى نفسي في تلك الفتاة الساذجة، البلهاء بعض البله! ها هي عبارات روبير، التي كنت أستشهد بها والتي كانت تملأ نفسي غبطة وكبرياء يمازجها الحب، ما أزال أسمعها؛ ولكني أفسرها الآن على وجه آخر. هذه الريبة، التي أتألم اليوم منها، أحاول أن أستعيد في نفسي قصتها؛ وأعتقد أنها نشأت ذات يوم بعد زواجنا بقليل؛ إذ سمعت روبير يجيب والدي - وكان والدي قد أبدى إعجابه بطريقة روبير في ترتيب بطاقاته فسأله:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- إذن فأنت الذي وجدت هذه الطريقة؟

سمعته يجيب قائلًا:

- نعم.... وأنا أبحث وجدت. قال ذلك في لهجة يتعذر وصفها، فيها التسامي والتواضع، وفيها التعمق والخفة معًا. أوه! لم يكن ذلك بالشيء الذي يُذكر، بل إنني لم أعلق عليه في تلك اللحظة أهمية ما. ولكن لما علمت بعدئذ، وأنا متوجهة إلى وزّاق بشارع دي باك أسدد حسابه، أن هذا المصنف المتقن الذي كان روبير يضع فيه بطاقاته، إنما خرج من حانوت ذلك الوزّاق، رأيته عبثًا أن يتخذ روبير مظهره ذاك، الذي يوعز بهبوط الإلهام عليه، والذي يكاد يشعر بالجهد والألم: مظهر المخترع الذي "كان يعتقد أنه من الواجب عليه" أن يتخذه لكي ينطق هذا اللفظ "وجدت". نعم؛ نعم، يا صاحبي هذا مفهوم: أنت وجدت هذا المصنف في شارع دي باك؛ فما الداعي إذن لقولك "وأنا أبحث"؟ ألا كان عليك إذن أن تقول "وأنا أبحث عن المظاريف التي كنت قد طلبتها..." وتبيّن لي في جلاء، أن عالمًا من العلماء، على أثر اكتشاف حقيقي يقع له، لن يفكر أبدًا أن يقول: "وأنا أبحث وجدت"، لأن ذلك مفهوم بطبعه. وليس في هذه الكلمات التي تفوه بها روبير، إلا ما يلتمس به إخفاء أنه لم يخترع شيئًا. وهكذا لم ير والدي في إجابته إلا وهجًا، وكذلك رأيتها أنا بالمثل. على أن ما أكتبه اليوم لم يبد لي واضحًا جليًا إلا فيما بعد، ولقد شعرت بالغريزة أن في هذا القول شيئًا لا سبيل إلى وصفه ينبئ بالخداع. ومع أن روبير لم يقل ما قال بقصد خداع والدي، بل فلتت تلك العبارة منه دون وعي، فإن في تلك الدلالة أكبر الدلالة؛ لم يكن يخدع والدي، ولكنه كان يخدع نفسه.

وروبير ليس بالمرائي، لأن العواطف التي يعبر عنها يتخيلها وكأنها حقيقة من نفسه، بل أظن أن الأمر ينتهي به إلى الإحساس بها، إذ تتفق مع أجمل العواطف وأسخاها وأنبلها، تلك العواطف التي من الملائم التخلي بها ومن المنفعة حيازتها. وأنا أشك في أن الكثير من الناس يعتقدون فعلًا في صدق هذه العواطف، ولكنهم، على أية حال، يتظاهرون بتصديقها، فينشأ عن موقفهم هذا نوع من الاتفاق الوضعي؛ ولعلنا نرضى التماشا للراحة، أن نتصنع أننا مخدوعون دون أن نكون

مخدوعين فعلاً. ووالدي - الذي كان في مبدأ الأمر يلمح لي واقفًا على حقيقة روبير بينا كنت أنا لا أدري شيئًا، والذي كان يغضبني رأيه عنه في أثناء خطبتي - يبدو الآن أنه قد غيّر رأيه فيه كل التغيير؛ فتراه الآن، في كل مناقشة تحدث بيني وبين روبير، يخطئ رأيي. هو طيب جدًا وضعيف جدًا، بينما روبير حاذق جدًا...! أما والدتي.... ولقد أشعر، في بعض الأيام، أنني وحيدة إلى درجة موحشة، ولا أستطيع التعبير عما أفكر فيه إلا لهذه الكراسة، واعتاد حبها كأنها لي صديق كتوم طيع، يمكن أخيرًا الإفضاء إليه بسري الدفين وما يجول في خاطري من أفكار مؤلمة.

ويعتقد روبير أنه يعرف طوية نفسي حق المعرفة، ولا يشك في أنه من الممكن أن تكون لي حياة خاصة خارجة عن حياته، بل لقد غدا لا يعتبرني إلا كتابع له، وأنني قطعة من متاعه، وأنني زوجته.

5 يوليو

إزاء كل شخص جديد يتعرف إليه أشعر بل أعرف أن همه الأول أن يلتمس من أي طرف يمسكه، وبأية وسيلة يستحوذ عليه، حتى في أعماله، التي تبدو في ظاهرها صادرة عن أكبر سخاء، والتي يحاول أن يظهر فيها أنه أكثر الناس خدمة للغير، أشعر أن ما يعمله ينطوي على أن يجعل الغير مدينين له.

وبأية سذاجة يعمل، وبأي مظهر طبيعي....! في الأيام الأولى من زواجنا، ولم يكن قد تعلم بعد أن يرتاب في، كانت تفلت منه عبارات كهذه فيها الدلالة الكافية: "لقد كوفئت شر المكافأة على عطفي" كأنما هو فرض طبيعي أن ينتظر العطف من الغير ثوابًا، وكنت أجزع لدى سماعي قوله :"فلان.... بعد كل ما فعلت من أجله، لا يحق له أن يرفض لي شيئًا"

وترى، في هذا، كل الأسباب التي دعت روبير لإنشاء مجلته التي يديرها، والتي لم يكف عن الاهتمام بها إلا في العام الماضي بعد أن تحول الشريط الأحمر الذي يحمله في عروته إلى وريدة صغيرة. خلف مظاهر من البعد عن التحزب, لم تكن المجلة إلا نوعًا من وكالة غرضها تبادل المعونة وتبادل الأفضال، وكان روبير يعتبر كل مقال، يمدح فيه شخصًا أو هيئة ما، كأنه صك دين على الشخص أو الهيئة، وأكبر

مواهبه فنه في استخدام الناس والظهور بأنه هو الذي يخدمهم. وما كانت تكون تلك المقالات التي أعطاها للمجلة لنشرها، لولا ذلك السكرتير الشاب الذي راجعها وأعاد كتابتها وتحريرها... ولكن روبير إذا ما تحدث عن ذلك الفتى الظريف، الموهوب حقًا، الكتوم كل الكتمان والذي يظهر في مسلكه أرق الأدب، رأيته يصيح :"آه! ما كان يكون هذا الفتى لولاي أنا!"

إذا استمعت إلى روبير، فهمت منه أن هذه المجلة لم يكن غرضها إلا مساعدة الفنانين المغمورين، والإخلاص في العمل على أن يعرفهم الجمهور، وعلى أن "يفرضوا عليه فرضًا" كما كان يقول؛ ولكن المجلة كانت، في نفس الوقت، تساعده على أن يدفع بنفسه دفعًا. نعم، لقد بذل روبير، ولا شك، جهدًا بالغًا حتى يقدر الجمهور ويستثمر نبوغ بورجفيلسدورف الذي كان إلى جانب نبوغه، أبيّ النفس كل الإباء، متواضعًا ألطف التواضع، والذي كان أقل ما يقال عنه إنه يزدري في صدق كل حظوة من عامة الجمهور، ولكن ارتفاع قيمة لوحاته، هذا الارتفاع العجيب الذي يرجع إلى الدعاية المتقنة التي رتبتها المجلة بعد وفاته، أتاح لروبير أن يبيع لوحتين اثنتين من مجموعة ما يسميه "قاعته" بثمن يزيد كثيرًا عن الثمن الذي اشترى به كل لوحاته الأخرى، وهذه اللوحات التي ظلت ردحًا طويلًا حبيسة خزائنها ثم خرجت منها أخيرًا، تراها الآن معلقة على جدران المسكن، في شكل استعراضي، يتيح لروبير أن يقول لولده في لهجة خطابية:

- يندر جدًا ألا يكافئنا الله في النهاية.

آه! كم أتوق لأن أراه، ولو مرة واحدة، يدافع عن قضية يكون قد تورط فيها حقًا، أو أن يحس بعواطف لا ربح من ورائها، أو أن تكون له عقائد لا تعود عليه بالنفع.

عندما دعا والدي وأبناء عمي من أسرة بير، كما دعا حتى بورجفيلسدوروف، ذلك الفتى المجتهد الذي كان حظه من الثروة ضئيلًا، إلى المساهمة في مشروع المطبعة - ذلك المشروع الذي فشل على كل حال فشلًا مخجلًا- كان الظاهر أنه يسدي إليهم جميلًا كبيرًا؛ فالأسهم كان الطلب عليها مشتدًا، ولم يكن في وسعه أن يتصرف في أكثر من عدد محدود منها، يتفضل بالتنازل عنه راضيًا لينفع به أصدقاءه... وكان

يعرض ذلك في حذق بالغ، حتى أنني فكرت مليًا في نفسي :"ما ألطف روبيرا...." لأنني لم أكن أدرك وقتئذ أن تلك الأسهم التي يبيعها باسمه، كانت تضمن له الأغلبية، وترفع من شأنه ارتفاعًا لا حد له.

ثم، بعد فشل المشروع، ما كان أجمل العبارات التي وجدها ليعتذر عن الخسائر التي ألحقها بهم طيشه.

ثم، بعد فشل المشروع، ما كان أجمل العبارات التي وجدها ليعتذر عن الخسائر التي ألحقها بهم طيشه.

هؤلاء الأصدقاء الأعزاء المساكين ... لقد كوفئوا شر المكافأة على ما أودعوني من ثقة. آه! أنني أجازى أشد الجزاء لابتغائي معاونة الغير. إن هذا ليبغضنك في أن تسدى يدًا إلى آخر ذلك.

بينما كان من أيسر الأمور عليه أن يسدد في كل بلاهة إلى بورجفيلسدورف على الأقل، ذلك المال الذي لم يجازف به في هذا المشروع إلا تحت الحاجة وبناءً على الضمانات التي قدمها له، وجد هو السبيل إلى "تصفية موقفه" والانسحاب من المشروع في الوقت المناسب بأرباح لا يُستهان بها، كما أنبأني بذلك فيما بعد. ولما بدا عليّ أنني على وشك الغضب لأنه لم يفكر قبل كل شيء في حماية أموال أصدقائه، أجابني في ارتباك أنه لم يكن في استطاعته أن يبيع أسهمهم دون توكيل منهم لم يسعفه الوقت للحصول عليه، وفضلًا عن ذلك فإن بيع عدد كبير من الأسهم فجأة، ودفعة واحدة، كان يعرض الأسهم للنزول. أظن أنني لم أحتقره في يوم من الأيام قدر احتقاري إياه في ذلك اليوم؛ ولكني ضبطت النفس حتى لا أظهره على طويتي، ولم يكن في وسعه أن يتبين بنفسه هذا الاحتقار لأن ما فعله كان أمرًا طبيعيًا جدًا؛ بل لقد كان يشك في أنني لو كنت مكانه ما فعلت إلا ما فعل.

6 يوليو

ما أكبر الشبه بين جوستاف وأبيه؛ أعتقد أن مارشان هو الذي لفتني إلى ذلك أولًا. كل الأوهام التي ظللت أخدع نفسي بها زمنًا طويلًا من أجل روبير، لبثت أخدع بها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

النفس من أجل جوستاف إلى هذه الشهور الأخيرة؛ وذلك أنه يتعذر علينا إلى حد بعيد الحكم حكمًا صحيحًا على شخص نحبه. بينما كنت أسترد نفسي من روبير، وبينما اعتقدت أنني أصبحت بعيدة النظر، كنت وأنا أحوّل رعايتي وأماني منه إلى جوستاف، كنت أقو ل "هو على الأقل...." وذلك أن عيوب روبير لم تظهر في جوستاف إلا على صورة معدّلة، إن صحّ هذا التعبير، إذ تراءت في أشكال مختلفة؛ ولكنني أتبينها الآن، هى هي بنفسها، وإن اختفت خلف مظاهر جديدة، لا يمكنني أن أخدع بها بعد الآن.... بل إن بعض ما يميز روبير في طباعه، أجد الآن تفسيره عند ابنه. أنا لا يسرني أن أراه يهمل في مواد منهجه الدراسي كل ما يخشى امتحانه فيه، وهو لا يتعلم شيئًا رغبة منه في العلم؛ والأهم لديه أن يظن الناس فيه المعرفة، لا أن يعرف فعلًا. لقد بذلت جهدًا شاقًا حتى أحمله على تجنب تلك العادة، التي كانت له وهو صغير، إذ يسأل في كل الأمور "وما نفع هذا؟" لم أكن أجد في هذا السؤال، في البداية، إلا حب إطلاع مستظرف؛ أما الآن فإنه لم يعد يوجه سؤاله، ولكنني كنت أفضل لو أنه يوجهه فإنه يفكر فيه بالرغم منه، فليدع ما لا يعود عليه "بالنفع".

أعجب كيف أنني كنت فيما مضى أهنئه على اختياره أصدقائه يا لسذاجتي! كنت أقول لإيفون "جوستاف لا يقبل أن يصاحب إلا أحسن الصبية" وكان قولي هذا يحمل مارشان على الابتسام.

في الحفلة التي أقمتها للصبية العام الماضي، بناءً على طلب جوستاف ونصيحة روبير، كان فيها ابن وزير، وابن أخ عضو في مجلس الشيوخ، وصبي له لقب الكونت، وقصارى القول، لم يدع في الحفلة إلا أبناء الأثرياء والعظماء والمشاهير؛ لم يكن من الممكن أن يختار روبير أحسن مما اختار ابنه. حقًا أن لجوستاف صديقًا آخر يتقاضى إعانة مدرسية، يشتغل والده بالتعليم، وهما فقيران. وكان جوستاف قد أفهمني أنه لا يليق دعوته مع الآخرين، وراق لي حينئذ أن أجد في هذا التصرف رقة من جانبه، إلا أنني أعتقد اليوم بكل بساطة أن جوستاف كان يخشى أن يخجله صاحبه هذا، وهو يحب أن يراه، ولكن لكي يبهره ويسيطر عليه؛ أما أنا فإنني أفضله على جميع أصحابه، وهو الوحيد بينهم الذي أتوسم فيه قيمة شخصية حقيقية. وهذا الفتى الكريم الفؤاد يعبد جوستاف عبادة، وما من مرة رأيته فيها يجثو إعجابًا

بما يقوله صاحبه أو يفعله، إلا وددت أن ألفت نظره وأن أقول له:

- يا بني المسكين لا يغرنك منه ذلك، إنما يحب منك ولدي إخلاصك له، لا شخصك.

وحين ألوم جوستاف على لجوئه إلى إخلاص صاحبه حتى يؤدي له عملًا ما، كان يمكنه أن يقوم هو به، يجيبني بقوله: "ولكن، يا أماه، أنه يسر بأداء هذا العمل بينما أضيق به".

وعلى هذا كان صاحبه هو الممتن على ما يؤديه من خدمة له! هذه التسلية، التي أجدها في ملء هذه الصفحات البيضاء تبدو لي تافهة وإن تكن تسلية غير منكورة؛ على أنني لا أدع قلمي يجري على سجيته كما كان يجري من قبل. وإني وإن كنت أفكر من قبل، ويبدو لي أنني أكتب الآن أحسن. وما من شيء كان له أثر في تعليمي قدر ما بذلت من عناية في تعليم جوستاف وجنوفيف؛ وحتى أجعلهما يفهمان كتاب منهجهما أحسن الفهم، حاولت في البداية أن أفهمهم جيدًا وهذا هو السبب في أن ذوقي قد تغير كثيرًا، وفي أن عددًا كبيرًا من الكتب العصرية، التي كنت أجد فيها لذة، تبدو لي الآن فارغة لا طعم لها؛ في حين أرى كتبًا أخرى تحيا وتضيء، وكنت من قبل لا أقرأها إلا لأنها واجب مفروض، ولا أجد فيها سوى السأم. وإني لأكتشف الآن، في ثنايا تأليف عظماء الكُتاب السالفين، اعترافات كنت أراها فيما مضى كلامًا مفخمًا ولغوًا جميلًا، حتى أنني قد اتخذت لي من بعضهم أصدقاء ومستشارين أودعهم سري. وما أكثر ما ألجأ إليهم ملتمسة عزاء وسلوى، أحيانًا ما أكون في أشد الحاجة إليهما؛ إذ أشعر شعورًا مفزعًا أنني وحيدة.

11 يوليو

عاد صديقنا القديم الأب بريدل، وكان قد سافر إلى بوردو لوفاة أحد أفراد أسرته، وحضر لزيارتي وقضى معي نهاية يوم أمس. إنه يعرفني حق المعرفة! وفيما مضى كنا نتفاهم كل التفاهم!... ولقد أديت له فرض الاعتراف، وهذا ما لم أقم به من زمن طويل؛ إذ إنني من أمد بعيد قد أهملت فروضي الدينية إهمالًا كبيرًا. وكان ما يعرضه روبير جهرًا من شعائر الدين قد جعل هذه الشعائر بغيضة إلى قلبي،

ومظاهر تدينه حملتني على التشكك في حقيقة تديني، وسجداته الاستعراضية كانت تحبس الصلاة في قلبي. غير أنني بالأمس، بدافع الضعف أو الجزع من الوحدة والحاجة إلى العطف، لم أتمالك من التحدث إلى الأب بريدل الذي يريد أن أعتبره صديقًا أكثر منه قسًا. وأسفاه! لقد خرجت من هذا الحديث منقوصة، مسلوبة القياد، قانطة دون أن تزيد ثقتي بنفسي أو بروبير.

استهل الأب بريدل حديثه بقوله، إن الكلام لا يصدر دائمًا من فيض القلب، فكما أن التعبير كثيرًا ما يسبق، في فريضة الصلاة، الشعور المتوثب الصادق، كذلك الأمر فيما يختص بروبير، فتعبيره عن عاطفه ما لا يقترن في الحال بالشعور الحقيقي بها، وعليّ أن أتقبل ذلك راجية أن الشعور ينتهي إلى اللحاق بالتعبير بعد قليل. وفي رأي الأب بريدل أن الأهم ليس في أن نقول ما نفكر فيه - لأننا كثيرًا ما نفكر تفكيرًا سيئًا جدًا - وإنما أن نقول ما يجب علينا أن نفكر فيه؛ لأننا، وهذا طبيعي ويكاد يكون قصر إرادتنا، نصل في النهاية إلى التفكير فيما أسلفنا التعبير عنه.

وموجز القول، أنه دافع في عنف عن روبير وأنكر عليّ كل حق في أن أرتاب بصدقه، ولم يرتض أن يرى في شكاتي وفيما أسماه "مطالبي" إلا مظهرًا للكِبر الذي يدعو لأشد الأسى، كِبر نما في نفسي وتطور بإهمالي تأدية فروضي الدينية. وسرعان ما انتهى بي الأمر، أمام ما توسل إليه القس من سيطرة شاملة على نفسي، إلى أنني لم أعد أتبين في وضوح ما كنت أشكو منه، أو أتفهم ما آخذه على روبير. ما كنت إلا طفلًا ينفر ويطالب في حدة. ولما احتججت عليه، وأنا أجهش، بأن ما كان يراه مني ثورة إن هو إلا عوز كبير - لأني أخدم وأخلص - إلى شيء واقعي، وأن في نفس روبير، تحت ستر من المظاهر الكاذبة، لم يستخف سوى فراغ كبير، حينئذ أجاب في لهجة جادة وبصوت رق فجأة:

- حسنًا يا بُنيتي، في هذا الحال، واجبك يحتم عليك أن تعاونيه على إخفاء هذا الفراغ.... عن الأنظار جميعًا. ثم أضاف في لهجة أكثر جدًا: وعن أنظار ولديك بصفة خاصة، فمن المهم أن يستطيعا الاستمرار في احترام والدهما وإجلاله؛ وعليكِ وحدك أن تعملي لذلك بستر وإخفاء وعلاج نقص كفاياته. نعم هذا واجبك باعتبارك

زوجًا مسيحية وأمًا؛ هذا هو الواجب الذي لا يمكنك أن تحاولي التهرب منه، وإلا كان ذلك خروجًا على الدين.

وكنت، وأنا راكعة بعض الشيء أمامه، أحجب بيدي نشيجي وارتباكي وخجلي، ولما أن رفعت جبيني رأيت في عينيه عبرات وشعرت في قلبه بشفقة صادقة عميقة نحوي، شفقة أثرت في نفسي فجأة أكثر مما أثرت فيّ كلماته. لم أقل شيئًا، لم أستطع أن أجد ما أقوله، ولكنه فهم جيدًا أنني خضعت.

لا يلزم بعد إلا القليل حتى أقوم اليوم بتمزيق كل ما كتبته في الأيام الأخيرة. لا أريد أن تتاح لي استعادة قراءته حتى وإن يكن ذلك للاستحياء منه فحسب.

12 يوليو

وهكذا كل ما تبقى لي هو أن أضع نفسي في خدمة امرئ لم أعد أحمل له حبًا أو تقديرًا، في خدمة امرئ لن يقدر لي تضحية هو عاجز عن إدراكها، بل ولن يدري بها، في خدمة امرئ لم أتبين ما هو عليه من ضعف إلا بعد فوات الوقت؛ في خدمة مهرج أنا زوجته. هذه قسمتي وعلة وجودي وهدفي. وليس لي، من بعد، أفق آخر في هذه الأرض.

وعبثًا ما يحاول الأب بريدل أن يزين لي محاسن الزهد...."عند الله". وما كاد إليه يشير حتى وعيت توًا في محنتي أنني فقدت إيماني بالله في الوقت الذي فقدته في روبير. إن مجرد فكرة لقائه فيما وراء القبر جزاءً محزنًا على إخلاصي، لتبعث فيّ الفزع... حتى لثعرض روحي عن الحياة الأبدية. وأنا إذا لم أكن أكثر خوفًا من الموت، فذلك لأنني لا أؤمن بالبعث، بل لم أعد أؤمن به، وإني بهذا لأحس. كتبت بالأمس لفظ "الخضوع" ولكن هذا ليس صحيحًا، فإنني لا أشعر في نفسي إلا بأسًا وإلا ثورة وإلا غضبًا. ويزعم الأب بريدل أن هذا "كِبر" مني...؛ حسنًا فليكن ذلك. أعتقد أنني خير من روبير، وعلى وجه الدقة فإنني، إذ أذل له نفسي أشد الإذلال، فسوف أدرك تمامًا ما لنفسي من قدر وأشعر كل الشعور بكِبري. ألا يفهم الأب بريدل، الذي يحذرني من جريرة الكِبر أنه على عكس ما يبغي يدفعني إليه دفعًا، وأن الوسيلة الوحيدة التي يمكنه أن يستنجد بها لينال مني تواضع النفس، هي الكبر

ذاته؟

كِبر، تواضع... لفظان أستعيدهما فلا أفهم لهما الآن معنى، وكأن هذا الحديث الذي جرى بيني وبين الأب بريدل قد أفرغ هذين اللفظين من كل مدلول. والفكرة التي عبثًا ما أحاول استبعادها، والتي تعذبني منذ الأمس، والتي قضت على ثقتي بالأب بريدل كما قضت على ثقتي بكل ما يذهب إلى إقناعي به، هي في واقع الأمر، أنه هو والكنيسة لا يعنيان إلا بالمظاهر والأب بريدل يستريح إلى شبيه الصدق الذي ينفعه، ويفضله على صدقي الذي يضيره ويحرجه. ولقد استطاع روبير أن يستميله كما يستطيع أن يستميل كل الناس؛ فإليه يُسدي الثناء كله، وإليّ يوجه اللوم كله. وليس من المهم أن يحمل التعبير وراءه شيئًا فالأب بريدل يكفيه التعبير، والتعبير يكفيهم جميعًا. وأنا الغرة لأنني لا أرضى أن اكتفي به. ما أبحث عنه فيما وراءه لا أهمية له، لا وجود له، لا حقيقة له.

حسناً ! ما دام يبدو أنه ينبغي الاكتفاء بالمظهر، فلأتخذ إذن مظهر التواضع دون أن أشعر في قلبي بشعور التواضع فعلًا. ولكني، في هذا المساء، في محنتي، أود أن أومن بالله لأسأله أهذا ما يريده حقًا!

13 يوليو

وصلت إليّ برقية مفزعة من أبي تستدعيني فجأة إلى باريس، فقد وقع لروبير حادث سيارة "لا خطر فيه" كما تقول البرقية، ومع ذلك يسألونني العودة. لو أن حالة روبير كانت خطيرة جدًا لاستدعي ولدي جوستاف أيضًا، وهذا ما أقوله لنفسي لأطمئن.

أندم ندمًا شديدًا لما كتبته هنا في هذه الأيام الأخيرة، ولحسن الاتفاق أن صحة جوستاف جيدة، ويمكنني لذلك أن أدعه وحيدًا بضعة أيام دون خوف. يعدني صاحب المثوى - بنسيون - بأنه سوف يرى جوستاف، ويتعهد الطبيب - الذي كان هنا وقت أن تسلمت البرقية - بأن يرسل إليّ البيان اليومي لحالته الصحية، ولسوف أعود إذن في أول قطار.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

باريس 14 يوليو

الحمد لله! روبير على قيد الحياة ويؤكد لي الدكتور مارشان والجراح ألا محل للقلق عليه. كيف لا أرى في هذا الحادث إنذارًا من السماء؟ كما قال لي توًا الأب بريدل عندما رآني، وقد وجدته هناك إلى جانب سرير روبير. فإن عجلة السيارة، التي قلبته والتي كان في الإمكان أن تسحقه، بمعجزة لم تمر إلا على ذراعه اليسرى، محدثة في عظمها كسرًا مضاعفًا من اليسير جبره، كما يقول مارشان.

على أن ما أفزعني أشد الفزع حينما رأيت روبير، إنما هو رباط كان يحجب بعض وجهه في حين لم يصب في هذا المكان إلا بكدمات بسيطة، ومع ذلك فإن روبير يحس بآلام عنيفة في رأسه يتحملها في شجاعة واستسلام جديرين حقًا بالإعجاب. إلى ما كتبته هنا، عليّ أن أضيف أن رأسي كان يضطرب مما سوف يقوله لي روبير أو على الأصح مما قد أشعر به من ضيق كنت أخشى أن أحس به؛ ولكنه ما كاد يتلفظ بضع كلمات حتى شعرت أنني لم أكف عن حبه. قال لي في بساطة:

- أسألك المغفرة عن كل ما أسببه لك من إزعاج.

فلما أن انثنيت إليه، أردف وهو يبسم بالرغم من آلامه:

- لا، لا تقبليني فإنني دميم جدًا.

فترامیت جاثية إلى أسفل سريره والدموع تنهمر من عينيّ، ثم في صمت، حمدت الله على أنه ظل لا يستمع إلى شكاتي الكافرة، وأنه حفظ لي روبير، وأنه أبى عليّ الحرية الأثيمة التي يخجلني الآن أن رجوتها رجاءً، أطلب الآن من كل قلبي المغفرة عنه.

وكنت أحس إحساساً أشد بأن الله يجرب وفائي، لو أن الأب بريدل لم يحاول إقناعي بذلك، فإنني أراني الآن أنفر من كل قول يقوله، غير أني أذعن. كأن روح الثورة، التي كنت أرحب بها في غير حذر والتي غدوت أردها الآن، قد تحولت صوب هذا الصيد الهزيل. فلأتركن لها هذه العظمة تنهشها.

على أنني أدرك اليوم كم كان الأب بريدل صائب الرأي حين رماني أمس بالكِبر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفي الواقع، بأي قدر من الكِبر يمتزج هذا الغضب المزرى الذي يتملكني كلما هم الأب بريدل يعظني بأداء واجب أتقبله عن رضى، وليس هناك ما يقضي أن يعلمني إياه الآن. عن هذا، ربْ، أتهم أيضًا نفسي، وإني لساعية إلى إذلالها لكي أكون مثل روبير الذي كنت أتغاضى عن حقه.

طلبت والدتي أن تحل محلي بجوار جوستاف، وسوف ترحل هذا المساء إلى أركاشون.

16 يوليو

ما يزال روبير يشكو آلامًا شديدة في رأسه؛ ولكن فحص الأشعة الذي أجرى له أمس، طمأن الدكتور مارشان، وكان يخشى أن تكون الجمجمة قد أصيبت بكسر، وهو يؤكد أن ذراعه سليمة لا تحتاج إلا إلى بعض الصبر، وفي رأيه أن في وسع روبير أن يستعملها بعد شهر، وهذا يطمئنني حقًا. لكن واأسفاه! أكان يجب أن أكون قلقة عليه حتى أميل إليه، وأتقرب منه، وأحظى منه بلهجة صادقة تلقي صداها في قلبي؟ عندي أنه يرتاع من الموت؟ وأحسب أن هذا الارتياع يضطره لأول مرة في حياته، أن يكون صادق التعبير. على أنه مذ اطمأن وذهب عنه روع الموت، وهو يصطنع الخوف ويبتدع للتعبير عنه كلمات مؤثرة. ومنذ أن زال قلقي عليه وأنا ألاحظ ذلك كله في غير تأثر.

وهو فضلًا عن ذلك شديد الانفعال يذرف الدمع لمجرد سماع نبرات صوته، ولو لم نكن على يقين من أن الخطر قد زال عنه، لاستطاع أن يبكينا جميعًا. هذا وأنه فطن لا يفوته أن التصنع لا يجدي مع كل الناس سواء، فتراه يزن تأثيره ويوزعه بنسبة ظنه بالناس وثقتهم به؛ فهو مع مارشان لا يجازف، بل يصطنع الجرأة في التفكير ويمزح، ولكنه يحتفظ بكل ما أوتي من قوة على التأثير للأب بريدل الذي يراه "مثالًا يوجب العبرة" ، ولأبي الذى يراه "مثال الشجاعة" ثم يخرج من حجرته وهو يغالب نشيجه. وأحسب أنه إزائي يحس بشيء من عدم الارتياح، فتراه يلتزم البساطة مخافة أن يتعثر، أو أن يؤول كلامه، وهذا بالنسبة له أمر أقل ما يكون من طبعه. ولكنني دهشت بالأمس إذ رأيت شخصًا آخر يلتزم روبير ملاحظة نفسه أمامه أكثر

من التزامه ملاحظتها أمامي، وذلك الشخص هو ابنتنا جنوفيف؛ فلقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة غريبة لدى بعض كلمات نطق بها والدها، كلمات لم يكن فيها مع ذلك طنطنة كبرى، ثم فتشت عيناها عن عينيّ التي حملتها في الحال كل ما أوتيت من صرامة. ليس في مقدورنا أن نمنع أولادنا من أن يقضوا برأيهم فينا، غير أنني لا أحتمل أن تؤمل جنوفيف في أن تجد مني موافقة على مكرها.

17 يوليو

الدكتور مارشان عاجز عن تفسير حالة روبير تفسيرًا مقبولًا، فإنه ما يزال يشكو الآم رأسه، وأنا أخطئ إذ أقول إنه يشكو، لأنه لا يفوه بشيء، وإنما يقبض أساريره ويصر على أسنانه كمن يغالب ألمًا شديدًا. فإذا سأله أحد أيتألم أومأ بالإيجاب، لا بحركة من رأسه، ولكن بما يعتبره ولا شك أبلغ، أعني بومضة طرف على عين تعالج الموت. يجزم مارشان أن لا شيء به مطلقًا، وعندي أنه يرتاب في صدق آلامه أو أنه على الأقل يحار في تعليلها، وهو في الانتظار. ولقد استدعى زميلًا له لاستشارته، فلم يتبين لزميله أكثر مما تبين له، وأكد لي أن حالته لا تدعو للقلق إطلاقًا، على أنني أحس أن روبير لا يسره أن يطمئنه الأطباء على صحته، أو أنه، على الأصح، لا يرضيه أن يطمئنونا عليه؛ فما أن انصرف الطبيبان حتى قال، وكأنه يقرر حكمة من الحكم: "إن علم الناس شيء واه لا يوثق به" ثم أردف، حتى تكون لعبارته أثر أوقع: " وأنا أقصد بهذا حتى أكثر الناس علمًا."

على أنه رفض أن يتناول أي طعام أمس، وأغلق باب حجرته عليه، رغم إنه كان يحاصرها عدد كبير من الفضوليين. وفي هذا الصباح طلب استدعاء والدتي وجوستاف من أركاشون. ولقد وردت إلينا برقية تفيد حضورهما الليلة.

وأخطر ما يتعرض له هو استعمال العبارات الشائعة وآخر الكلام المشهور والجمل المصطنعة، وهو يشعر بخطر هذا كله وإني لأعجب للكيفية التي بها يتجنبها. على أنه، من جهة أخرى، لا يتكلم إلا قليلًا؛ إذ ليس في المقدور أن يبتدع روائع الكلام في كل وقت. ومن بين آخر بدعه الحديثة الحط من قدر نفسه واستصغار شأنه. وترى الأب بريدل يُخدع بذلك ويتقبله على أنه تواضع مسيحي وتوبة نفس تقية. إذا ما

أحس روبير بوجود الأب إلى جانب سريره أغمض عينيه وتمتم:

- ها قد حان الوقت الذي يتحتم علينا فيه أن نزن أعمالنا ونقارن قليل الخير الذي صنعناه بكثيره الذي كان في الإمكان أن نصنعه. حتى إذا آنس منا صمتًا وإنصاتًا أردف :

- لقد كلفت نفسي أكبر العناء لا لشيء كبير. ثم أدار عينيه نحو الأب بريدل وقال: عسى ألا يقدّر الله مجهود عبده بقليل ما يدركه.

سكبت له دواءً مسكنًا سكت في أثناء تناوله ثم عاد للكلام.

- ليس الماء الجاري بالمرآة الصافية، ولكن إذا ما سكن الماء واستقر استطاع المرء أن يرى فيه وجهه.

وتنفس الصعداء بعد ذلك وأدار وجهه شطر الجدار وكأنه أراد أن يحجب عن نظره رؤيا مخيفة جدًا. ثم رفع صوته وقال في لهجة فيها الندم والكدر وفيها التفزز والزراية والأسف العميق:

- وأنا لا أرى فيه إلا حماقة وخبثًا وعجبًا....

فقاطعه الأب بريدل قائلًا:

- هلم، هلم، يا صاح إن الله الذي يقرأ ما في الصدور قادر على أن يستبين فيها أيضًا أشياء أخرى.

أما أنا، واأسفاه، أفلا استطيع أن أرى فيه إلا تصنعًا وهزلًا.

18 يوليو

حضرت والدتي ليلة أمس مع جوستاف. أراد روبير أن يتزين بعض التزين قبل أن يدخل عليه ولده، ولكنه حرص على أن يحتفظ بالرباط الذي كان يحجب جبينه إلى نصفه، رغم أن لا موجب له، وتعلل بأن ضوء المصباح يؤذي عينيه، فوضعه بحيث يظل وجهه في شبه ظلمة. وتوجه والدي إلى حجرة الاستقبال حيث التقى بوالدتي وجوستاف وأخذ يطمئنها على صحته. أما جنوفييف فقد لبثت في الغرفة

معي، وكذلك الخادمة شارلوت التي كانت على وشك الانتهاء من ترتيب أدوات الزينة؛ فكان مظهرنا أشبه بقوم يتهيأون لتمثيل منظر حيّ. فلما أن صار كل شيء معدًا، أدخلت جنوفييف القادمين.

وكان طبيعيًا أن يهرع جوستاف إلى والده يعانقه، إلا أن والده لم يكن يبغي هذا، فإنه أغمض عينيه وبدت على وجهه أعظم مظاهر التأثر، حتى أن جوستاف وقف بالباب مشدوهًا، بينما تخلفَّ والدي قليلًا، وعندئذ سمعنا روبير يقول:

- والآن تقدموا.... فإنني أشعر بضعف شديد.

وفتح إحدى عينيه، ليرى شارلوت التي كانت تتكلف الانصراف خفية وقال:

- لا تذهبي! لا تذهبي يا شارلوت، فإن بقاءك لا يضيرنا. كنت متلهفة إلى معرفة ما قد يستنبطه خياله بعد هذه العبارات الختامية التي قالها في هذه الأيام الماضية، خاصة وأن العاطفة الأبوية كان في إمكانها أن توحي إليه معانى لم يطرقها من قبل. فلما دنا جوستاف وجنوفييف من فراشه، وهما أشبه بممثلين تدربا على إتقان الدور الذي كلفا تمثيله، قال:

- يا ابنيا ! الآن يقع على عاتقيكما حمل الشعلة التي .... ولكنه لم يتمكن من إتمام عبارته، فإن جنوفييف، وكأنه تعذر عليها أن تمسك لسانها قاطعته قائلة في صوت جلي فيه خفة الدعابة:

- ولكن، يا أبي، إنك تخاطبنا وكأنك تتأهب للرحيل؛ إننا نعلم جميعًا أنك تماثلت للشفاء، وأن في مقدورك أن تنهض بعد أيام قلائل. ألا ترى إنك لا تبكي سوى شارلوت؟ إن دخل علينا أحد الآن ورآنا، لحسب أن شارلوت وحدها من بيننا هي التي لها قلب يحنو. فصاحت شارلوت :"إن سيدي جوستاف يرى تمامًا أن والده كذلك يبكي" - وفعلًا كان روبير يتكلم وهو يذرف دمعًا سخيًا - ثم دنت من فراشه قليلًا، وشجعها صمتنا فأردفت: "إن كان سيدي يشعر أنه ضعيف فلعله يحتاج إلى شيء من الطعام؛ سأذهب لإحضار الحساء."

- ولم يعد لروبير بعد ذلك سوى أن يسأل عن والدتي ألم تلق مشقة في سفرها،

وعن جوستاف أسرّتهُ الإقامة في أركاشون.

19 يوليو

جنوفييف لا تحب والدها. كيف لبثت طول هذه السنين دون أن أدرك هذا؟ ذلك أنني منذ زمن طويل لا أهتم بأمرها إلا قليلًا؛ إذ كنت أوجه عنايتي كلها إلى جوستاف؛ لأن صحته الرقيقة كانت تتطلب أكبر العناية، هذا وأعترف أنني كنت أميل إلى جوستاف أكثر من أخته؛ فإنه، كوالده، يعرف كيف يستميل النفوس إليه. وأنني أجد فيه الآن كل ما كان يفتنني في والده قبل أن تخيب آمالي، أما جنوفييف فكنت أحسبها مستغرقة في دراستها، مشغولة بها، غافلة عما عداها. وأني لأتساءل أكنت قد أحسنت في تشجيعها على طلب العلم. لقد دار بيني وبينها حديث مروع أدركت فيه، في وقت واحد، أن في إمكاني التفاهم معها أحسن التفاهم، وأدركت لِمَ لا أرغب في هذا التفاهم، ذلك أنني أخشى أن أجد في فكرها صدى فكري، وجرأة أكبر أفزع لها كل الفزع؛ وإنها لتنكر عليّ، في غير حياء، كل ما ساور نفسي من قلق وكل ما خالجها من شك. لا، لا، لا يمكنني أن أقرها على إنكارها، لا يمكنني أن أقبل منها أن تتحدث عن والدها بهذه اللهجة الدالة على السخرية الشديدة. ولكني لما نويت إحراجها رمتني في عنف بهذه العبارة : "وكأنما أنت تصدقينه؟". وشعرت بالدم يصعد إلى وجهي، ولم أجد ما أجيب به، ولم أتمكن من إخفاء خجلي واضطرابي، وصرحت بعد ذلك فورًا أنه لا يسعها أن تتقبل الزواج إن كان الزواج يمنح الزوج حقوقًا، وأنها فيما يتعلق بشخصها، لا ترضى أن تقر به قلبها شريكًا وصديقًا. وفي رأيها أن أصوب ما قد تفعله هو ألا تتزوج منه أبدًا؛ وقالت إن زواجي عبرة بالغة تحذرها من الوقوع في مثلها، ثم إنها لن تستطيع أن تفيني حقي من الشكر على ما هيأته لها بتعليمها من أن تكون رأيًا مستقلًا عنا، وأن تحيا حياة حرة، بحيث لا تربط حظها بحظ إنسان قد لا يكون لها كفؤًا.

وبينما كانت تسير بخطوات واسعة في الحجرة مكثت جالسة مثقلة بقحة حديثها، فرجوتها أن تخفض صوتها مخافة أن يسمع والدها كلامها؛ غير أنها قالت:

- وماذا لو كان يسمعنا... كل ما أقوله لك، أنا مستعدة أن أعيده على أسماعه؛ بل

يمكنك أن تعيديه بنفسك. أعيديه عليه. نعم. هذا ما أتمناه، أعيديه عليه.

وبدا لي أنها لا تعي ما تقول؛ فتركتها وانصرفت. حدث كل هذا ولم تمض بعد بضع ساعات.

20 يوليو

نعم، حدث هذا أمس قبل العشاء. ولاريب أن جنوفييف قد تأثرت لما كان يبدو على من علامات الأسى، التي لم أتمكن من إخفائها أثناء العشاء، إذ إنها حضرت إلى غرفتي، لما تقدم الليل، وألقت بنفسها بين أحضاني كما يفعل الأطفال، وداعبت وجهي، وعانقتني أرق العناق على نحو ما كانت تفعل فيما مضى، فعجزتُ عن دفع دمعي. وقالت:

- أماه، لقد أحزنتك، لا تؤاخذيني، فأنني لا أستطيع ولا أريد أن أكذب عليك، أعرف أنه يمكنك أن تفهميني، أما أنا فأني أفهمك أكثر مما تريدين. لابد لي من أن أتحدث إليك بأكثر مما تحدثت. اصغ إليّ: قد علمتني أن أفكر في أشياء أنتِ لا تجرؤين على التفكير فيها، أشياء تحسبين أن إيمانك بها ما يزال راسخًا، بينا أعرف أنا أن إيماني بها انمحى.

صمت لا أجرؤ على سؤالها عن هذه الأشياء، ثم إذا بها تسألني فجأة أكان وفائي لوالدها إنما كان من أجلها ومن أجل جوستاف؟ وأردفت، وهي ترنو إليّ بعينيها كما ترنو إلى طفل تزجره: " ثم إنني لا أشك قط في أنك كنت وفية له كل الوفاء".

وبدا لي هذا الانقلاب في الأوضاع شنيعًا، فعارضتها ذاكرة أن فكرة خيانة والدها لم تمس خاطري؛ وعندئذ قالت إنها تعرف جيدًا أنني أحببت بورجفيلسدروف.

فأجبتها في جفاء: قد يكون ذلك؛ على أنني نفسي لا أدري عن ذلك شيئًا.

فقالت:

- لعلك كنت لا تستطيعين أن تقري لنفسك بحبه، أما هو فقد كان لا يشك في حبك له.

كنت قد نهضت من مكاني لأبتعد عنها، متأهبة للانصراف إن هي استمرت في حديثها على هذا النحو، وعازمة في أية حال على ألا أجيب عليها بعد الآن؛ ثم جلست أو بالأحرى ارتميت على مقعد، إذ كنت أشعر أنني مرهقة. فارتمت في الحال من جديد بين أحضاني، وجلست على ركبتيّ، وزادت في مداعبتي كما لم تفعل قط من قبل، وقالت :

- ولكن يا أماه افهميني جيدًا، أنا لا ألومك.

ولما انتفضت لدى سماعي هذه الكلمات، أمسكت بذراعي حتى لا أتحرك، وقالت ضاحكة، في لهجة مداعبة مشاكسة كأنها تخفف بها من وطأة قولها غير اللائق أو المحتمل:

- ما أريد أن أعرفه هو هذا فقط: أكانت هنالك تضحية من قبلك؟

وكانت قد عادت إلى جدها، أما أنا فقد بدلت جهدي حتى لا تظهر على محياي أمارة تنم عما في نفسي؛ وأدركت أنني لن أجيب عليها فعاودت الكلام، قالت :

- أية قصة رائعة أستطيع أن أكتبها إن شئتِ إملاءها عليّ، إن شئتِ، كان عنوانها "واجبات أم أو التضحية الضائعة".

ولما رأتني لا أنبس بحرف شرعت تهز رأسها يمنة ويسرة في مظهر الاستنكار المتئد وقالت :

- ألا إنك قد جعلت من نفسك عبدًا لواجبك ثم استدركت : لواجب وهمي...؛ لا، لا، أنت تحسين تمامًا أنه لا يسعني أن أعترف لك بهذا الجميل. لا، لا تحتجي، أحسب ألا طاقة لي على حبك إن كنت أحس أنك ذات فضل عليّ، أو كنت أحس أنك تعتقدين أنني مدينة لك. فضلك ملك لك، ولا أطيق أن أشعر أنني معلقة. ثم عدلت عن لهجتها فجأة وقالت :

- والآن تكلمي، أسرعي، قولي شيئًا، أي شيء، حتى لا أكون ساخطة على كل ما قلت إذا خلوت بغرفتي بعد قليل.

وشعرت بحزن قاتل يستولى علي، ولم أملك سوى أن أقبلها على جبينها.

لم أنم في هذه الليلة فقد لبثت عبارات جنوفييف تدوي في فراغ قلبي المروع، آه ليتني ما تركتها تتكلم، فإنني لا أدري الآن أكانت هي التي تكلمت أم أنا. أترى هذا الصوت الذي تركته يعلو، يصمت بعد الآن؟ إن كنت لا أخاف من نفسي، فذلك أن تخاذلي يطمئنني.

عبثًا ما يثور الفكر، وأنا قسر إرادتي مذعنة، عبثًا أحاول أن أعرف ما كان في إمكاني أن أصنع في هذه الحياة غير ما صنعت؛ وها أنا بالرغم مني عالقة بروبير وبولدي الذين هما ولداه، أين المفر وأنا أعلم علم اليقين أن هذه الحرية التي أنشدها، إن حظيت بها يومًا، فلن أعرف ما أفعل بها، وإني أسمع، كرنين الناقوس، تلك العبارة التي نطقت بها جنوفييف، ذات يوم، وهي تضحك :

- مهما حاولتِ، يا أماه المسكينة، فلن تكوني سوى امرأة شريفة.

22 يوليو

سأدوّن أفكاري دون ترتيب ....

كان احترام ولدي لي يحميني، وكان يروق لي أن أجد فيه سندًا لي؛ وها هي جنوفييف تجردني منه، ولم يعد لدي الآن حتى هذا أستعين به. وليس لي أن أقاوم أحدًا الآن سواي، سوى فضيلتي، وأحس أني لها سجينة ولا سبيل إلى الفرار.

لو أن روبير، مع ذلك، كان يفعل ما يستلزم اللوم! إلا أن أفعاله ليس فيها مجال للومه؛ وعيوبه التي أتألم منها والتي أضحت بغيضة إلى نفسي، هو لا يصوبها إليّ، فلا أستطيع أن ألومه إلا على شخصه. هذا، وليس لي حب آخر يجتذبني إليه، ولا أفكر مطلقًا في خيانته، فإن فكرت كان ذلك بأن أرحل عنه. آه! لشد ما أود فراقه فقط....

لو كان مريضًا! أو كان لا يستطيع الاستغناء عني!

لا يمكنني أن أزهد في الحياة وأنا بعد لم أناهز الأربعين. ألن يجود الله عليّ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بفروض سوى ما فرض من انزواء مميت واستسلام تعس؟ أي نصح أرتجى؟ وممن؟ والديّ يبديان الإعجاب بروبير ويعتقدان أنني سعيدة كل السعادة. لم أظهر والدي على ما هما فيه من الخطأ؛ أي شيء أرتجيه منهما سوى إشفاق أنا في غنى عنه!

أما الأب بريدل فانه شيخ هرم لا يمكنه أن يفهمني؛ ثم هل في وسعه أن يقول أكثر مما قاله لي في أركاشون، ذلك القول الذي زاد في أسباب محنتي أسبابًا، إذ نصحني أن أفتنّ في إخفاء ضعف روبير عن أعين ولديه. كأن... ولكني لا أريد أن أحدثه بما دار بيني وبين جنوفييف، فإن ذلك خليق بأن يزيده سوء ظن بها، وحسبه الفكرة السيئة التي كوّنها عنها؛ ثم أنا واثقة من أنني سأكون في صف جنوفييف لدى أول كلمة يتفوه بها عنها، أما هي فإنه لم يسعها قط أن تطيق الأب، وكل ما حظيت به منها بشأنه هو ألا تكون وقحة معه.

مارشان؟.... نعم في إمكاني أن أتفاهم معه، بل في إمكاني أن أتفاهم معه جيدًا وفوق الكفاية، وهذا يحملني على الصمت، هذا إلى أنني لن أغتفر لنفسي إن عكرت على إيفون صفو بالها، فما بيننا من محبة فائقة يلزمني بإخفاء كل شيء عنها.

Telegram:@mbooks90

ها هي فكرة خطرت في بالي فجأة بينما أكتب هذا الكلام؛ لعل هذه الفكرة سخيفة ولكنني أشعر أنني لا أستطيع دفعها: ذلك الإنسان الذي ينبغي أن أكلمه عن روبير، إنما هو روبير نفسه. لقد استقرّ قراري: سوف أحدثه الليلة.

أمس مساء، كنت على أهبة الدخول إلى حجرة روبير لأفاتحه في هذا الأمر الذي أقسمت على نفسي أن أحدثه فيه، لما أن أخطرت بحضور والدي، وليس من عادته أن يحضر في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل، لذلك صحت:

- أوالدتي مريضة؟

- والدتك في صحة تامة.

وبينا كان يضمني بين ذراعيه قال:

- صحتك .. أنتِ يا ابنتي ليست على ما يرام. لا لا، لا تعترضي فمنذ زمن طويل وأن ألاحظ أن هناك أمورًا لا تجري في مجراها. يا بنيتي، أنا لا أطيق أن أراك غير

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سعيدة.

فبادرته بقولي:

- ولكن يا أبتاه كل شيء يجرى في مجراه. ما الذي يدفعك إلى الظن....؟

على أنني اضطررت إلى بتر عبارتي؛ لأنه وضع يديه على كاهلي، ونظر إليّ يرمقني، فشعرت أن قواي تخونني. قال:

- هاتان العينان التعبتان تنمان عن أمور جمة، تكلمي يا إيفلين، يا بنيتي، لم تريدين أن تخفي عليّ أمرك؟ أيخونك روبير؟

ولم أكن أتوقع هذا السؤال، فصحت في بلاهة، وكأن تلك الصيحة خرجت بالرغم مني:

- آه يا ليته يفعل...

قال :ماذا، الأمر خطير إذن. هيا تكلمي ما خطبك؟

قلت: كلا. روبير لا يخونني. وليس لدي ما ألومه عليه، وهذا بالفعل ما يعذبني.

ولما رأيت أنه لا يدرك كلامي أردفت:

- أتذكر أنك كنت معارضًا لزواجنا في أول عهدي بروبير؟ لقد سألتك وقتئذ ما كنت تأخذه على روبير ولكنك لم تجب، وغضبت لما رأيتك لا تجد ما تجيب به .. لِم لم تحبه وقتئذ؟

قال: ولكن يا بنيتي إنني لا أدرى الآن؛ لقد مضى زمن طويل على ذلك... نعم، في بادئ الأمر أخطأت في حكمي على روبير؛ كانت طريقته لا تعجبني؛ على أنني أدركت بسرعة أنني لحسن الحظ كنت مخطئًا...

أجبت : واأسفاه يا أبي، فإن حكمك عليه وقتئذ كان سديدًا، ثم حسبتَ أنك أخطأت لأنني كنت سعيدة معه؛ ولكن هذا لم يستمر، وأدركت بدوري...لا، إنك لم تخطئ. وكان ينبغي حينئذ أن أطيعك كما كنت أفعل وأنا فتاة صغيرة طيعة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فظل برهة يهز رأسه كمن أثقله الهم، وأخذ يتمتم في رقة كبيرة:

- يا بنيتي المسكينة.... يا بنيتي المسكينة!

فتكدرت إذ شعرت أنني آلمته آلمًا شديدًا، ولكن لم يكن بد من أن أستمر إلى النهاية، فجمعت شتات شجاعتي، وقلت :

- أريد أن أفارقه.

فانتفض جسمه كله وصاح: "آه، إيه!" صاحها في لهجة غريبة جدًا حتى لقد كادت تثير ضحكي لو أن قلبي لم يكن مثقلاً بالأسى. ثم جذبني إلى جانبه على الإيوان حيث كان يجلس، وقال وهو يداعب شعري:

- إن الأب بريدل سوف يذهل تمامًا لو أتيتِ هذا العمل الأحمق. هل تحدثتِ إليه في هذا كله؟

فأومأت بالإيجاب واعترفت له مرغمة، بأنه لم يعد بيني وبين الأب بريدل هذا التفاهم الذي كان بيننا في الماضي، فابتسم ونظر إلى نظرة ساخرة؛ وأحسب أن فكرة انتصاره غير المباشر، على رجل كان لا يطيقه من قبل، قد أطربته إذ قال:

- هكذا ! هكذا !

ولكنه سرعان ما غير لهجته وأردف :

- يا بنيتي العزيزة، فليكن كلامنا جديًا عمليًا.

ثم أوضح أنني إن فارقت المنزل تحملت الخطأ كله، وأردف :

- إننا لا نقدر السمعة الطيبة قدرها إلا بعد فقدانها.

إيفيلين يا بنيتي العزيزة، إنك كنت خيالية دائمًا، إلام تذهبين؟ وماذا تصنعين؟ لا، لا... ينبغي أن تبقي مع روبير ، وعليك أن تكملي معه حياتك؛ وليس هو على كل حال، بالغلام الشرير. لو حاولت التفاهم معه فلعله يفهم.....

أجبت : لن يفهم، ومع ذلك سوف أكلمه ولن يزيد الخناق بذلك إلا ضيقًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فعاود الكلام وقال: إنه لا ينبغي لي أن أحاول الخلاص من الخناق، بل يجب أن نتفق على وضع للحياة يرضاه كلانا، وأن نسعى إلى إيجاد نوع من المزاج يلائم كلينا. وهو يجب أن يستعمل الألفاظ الوهاجة التي تبهره قليلًا، كأنه بذلك يقنع نفسه بأنه لا يرهبها.. ثم أخذ يحدثني عن والدتي، فروى لي كيف أنه، على شاكلتي، لم يجد في زواجه ما كان ينتظر، ولاريب أنه كان يرمي من هذا الكلام إلى عزائي، ثم زعم أنه لم يفاتح أحدًا بهذا من قبل، ولذا كان يبدو كأنه يفرج عن كرب أمكنه أخيرًا أن يطلق له العنان. ولم أجد في نفسي الشجاعة لوقفه عن الكلام، رغم أني كنت أضيق باعترافاته ضيقًا يماثل ما شعرت به لدى حديثي الفظيع مع جنوفييف. وعندي أنه ينبغي أن تظل الصلة بين جيلين متعاقبين بعيدة عن ميدان الاعترافات، فقد تنتهك فيه حرمات من المستحسن أن تظل محل الاحترام.

على أن ضيقي كانت له بواعث أخرى لا يسرني أن أتحدث عنها، فإنني أحب والدي حبًا جمًا، ويؤلمني أن أصدر عليه حكمًا مهما يكن، بل أتمنى أن أراه لا يخطئ أبدًا، ولو لم أكن قد كفلت نفسي الصدق هنا لسكتُّ على هذه البواعث. إذ تحدث والدي عن أطماع شبابه وما كان في إمكانه أن يفعل، لو كان رأى من والدتي إدراكًا أكبر وتعضيدًا أكثر، حتى أني لا أملك نفسي عن التفكير في أنه كان بإمكانه حقًا أن يصل إلى أكثر مما وصل إليه؛ على أنه إن كان لم يفلح في الاستفادة بذكائه ومواهبه أكثر مما استفاد، فوالدتي غير مسئولة عن ذلك كما يريد ويروق له أن يذهب. أنا لا أشك في أنه قد عانى الكثير من ضيق عقليتها واتجاهها العملي، غير أنه يروق له أن يكرر قوله: "إن والدتك لا تريد... إن والدتك ليس من رأيها أن ... " ثم يستريح إلى هذا القول.

وقد ذكر لي بعد ذلك أنه لا يعرف أسرة ساد فيها الوئام إلا تمنى أحد الزوجين، في بعض الأحيان، لو أنه لم يتزوج قط، ولم أعترض عليه لأنه لا يحب الاعتراض؛ ومع ذلك لا يسعني أن أرضى عن هذا الكلام الذي أثرّ في نفسي أثر التطاول والمسبة.

وامتد حديثنا إلى أن تقدم الليل طويلًا، وخرج والدي من بعد هذا الحديث، وهو يشعر بارتياح كبير، دون أن يعي أنه يتركني وفي النفس أسى لم يعترها من قبل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

24 يوليو

خناق.... وكل مجهود يبذل للخلاص منه يزيد إحكامًا لقد جرى الحديث الذي كان لابد أن يجري بيني وبين روبير، لقد لعبت آخر ما عندي وخسرت. آه ! ليتني وليت دون أن أقول شيئًا لا لوالدي ولا لأحد غيره. لا أستطيع أن أتحمل أكثر مما تحملت وها أنا مغلوبة على أمري.

وجدت روبير مستلقيًا على مقعده الطويل، فقد بدأ يفارق فراشه منذ أيام. قلت متلمسة تمهيدًا لحديثي: حضرت لأرى أأنت في حاجة إلى شيء.

فقال في صوت أشبه بصوت الملائكة:

كلا يا عزيزتي ... شكرًا؛ إنني أشعر هذا المساء أن صحتي في تحسن، وأني قد بدأت أصدق أن الموت لا يطلبني الآن، ثم إنه، لما كان لا تفوته فرصة يمكنه فيها أن يبين سخاء نفسه ورقتها وعظمتها، أردف:

- لقد كلفتك أكبر العناء، وبودي لو أكون واثقًا من أنني أهل لما تبذلين من عناية.

وحاولت أن أنظر إليه دون مبالاة وقلت:

- روبير، لي حديث معك جدّي.

قال: أنت تعرفين أنني لا أمتنع قط عن الحديث الجدي؛ فمن رأى الموت عن قرب كما رأيته في هذه الأيام المنصرمة لا شك أن يتجه بفكره نحو الأفكار الجادة.

على أنني رأيتني فجأة وقد استحال على أن أدرك مما كنت أشكو وعما كنت حضرت للكلام، أو بعبارة أدق، بدا لي أن ما كنت أشكو منه لا سبيل إلى التعبير عنه، وخاصة أنني لم أكن أعرف بأية كيفية أو بأية عبارة أو بأي سؤال أبدأ الكلام، ومع ذلك كنت عازمة عزمًا أكيدًا على اقتحام المعركة، وكنت أكرر مرارًا وتكرارًا على نفسي حتى الجنون هذه العبارة: " لن تفعلي أبدًا إن لم تفعلي الآن"، بحيث إنه بدا لي أن بدء الحديث بأية عبارة ليس مهمًا، وأن الخير في أن أكِل أمري إلى نوع من الوحي لن يلبث أن يواتيني. وعندئذ. رأيتني أنطلق كما ينطلق الغواص إلى اللجة

وقد أغمض عينيه، قلت:

- روبيرا أود أن تقول لي، ألا تزال تذكر، لأى سبب تزوجتني؟

وليس من شك في أن روبير لم يكن يتوقع سؤالًا من هذا القبيل، فبدت عليه لحظة علامات الدهشة. بدت هذه العلامات لحظة وجيزة، فقط، إذ إن في قدرته دائمًا أن يسيطر على شعوره في سرعة عجيبة وهو، في ذلك، يذكرني بتلك الدمى ذوات الرؤوس الخفيفة، ترتفع دائمًا من تلقاء نفسها وتستقيم على أسها.. ونظر إليّ، محاولًا أن يدرك ما أرمي إليه من وراء كلامي، راغبًا في أن يزن دفاعه وقال:

- كيف يمكنك أن تتكلمي عن سبب بينما الأمر لا يخص إلا الشعور؟

وروبير يتحايل دائمًا حتى يسيطر على خصمه، ولا شيء يجدي معه؛ فوجهة النظر التي يتخذها تبدو وكأنها أشد سموًا، وشعرت كما يشعر لاعب الشطرنج أنني سأفقد ميزة الهجوم، وأفضل الأمر أن أضطره مرة أخرى إلى اتخاذ موقف الدفاع.

قلت له : أرجوك، حاول أن تتحدث إليّ في بساطة.

فاعترض في الحال قائلًا:

- لا يمكن أن يتحدث أحد بأبسط مما أتحدث.

كان هذا صحيحًا؛ ولذلك شعرت في الحال بطيش عبارتي. والواقع أنها كانت تحمل في طياتها لومًا قديمًا بما في القلب مع مجرى الأيام، غير أنه لم يكن هناك باعث له في هذه المرة.

قلتُ: نعم، إنك تقول هذا القول في بساطة الآن، ولكن ما أكثر ما أرهقتني بطنطنة كلامك، لاجئًا إلى مناطق عالية أنت تعرف أن ليس في مقدوري أن أتبعك إليها.

قال، وهو يبتسم في لطف، وفي أعذب لهجة أوتيت له:

- أخال يا عزيزتي أن من لا يتكلم الآن في بساطة إنما هو أنت. ها... تكلمي. في صريح العبارة: ما تلوميننى عليه؟ إنني مصغ إليك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على أن طريقة روبير أو منحاه في التعبير، وكان قد أصبح لا قبل لي به مطلقًا، غدا الآن المنحى الذي أحذوه في خطابه؛ ولعلني بهذا أفعل كما كنت أفعل في صباي؛ إذ كنت أحكى اللهجة الإنجليزية كلما تحدثت إلى إنجليزي، فكان والدي يضحك لذلك ويتفكه به. وأنني لأتساءل الآن ألنفس السبب يلتزم روبير البساطة في حديثه إليّ، ولنفس السبب أستعير أنا لهجته ومنحاه؛ وشعرت كأنني أزداد تورطًا.

فتجرأت وقلت: لكم تشعر نفسي بارتياح عظيم لو استطعت أن أجد ما أؤاخذك عليه؛ ولكني أعرف تمام المعرفة أنك، في تصرفك، تتحايل بحيث لا يكون الخطأ في جانبك، ولست في ذلك مثلي؛ فإنني ما أكاد أحاول التفاهم معك إلا رأيتني أقع في الخطأ، كما حدث ذلك الآن. ومع ذلك ثق بأنني لا أتأثر الآن بفكرة طائشة، وإنما قد أمعنت الفكر، وآلت عليّ نفسي أن أحدثك بما يخالجها من طويل الزمن، ثم كان أن أرجأت هذا الحديث يومًا فآخر....

وشعرت أن عبارتي طويلة فلم أتمها، ثم قلت في صوت منخفض جدًا، بحيث ذهلت من أنه تمكن من سماعه:

- روبير، اصغ! الأمر بسيط، لم أعد أطيق الحياة معك.. واقتضتني هذه العبارة، رغم أنها قيلت في صوت منخفض، أن أكف عن النظر إليه. فلما رأيت أنه ظل ساكنًا رفعت بصري، فإذا بوجهه يشحب، ولبث برهة ثم قال:

- إن سألتك بالمثل عن الأسباب التي تدعوك إلى فراقي، حق لك أن تجيبي، إن الأمر لا صلة له بأسباب وإنما يخص الشعور.

فقلت: أنت ترى أنني لا أقول لك ذلك.

ولكنه قال: إيفلين، أينبغي أن أفهم أنك لا تحبينني؟ وكان صوته يرتعد بما يكفي لأن يحملني على التشكك فيما إذا كان انفعاله مصطنعًا أم صادقًا، وبذلت جهدًا كبيرًا ثم قلت في عناء:

- إن من قد أحببته بكل عواطفي كان يختلف اختلافًا بينًا عمن ظهر لي في بطء

بالغ، هذا ما كنته.

فرفع حاجبيه وكتفه وقال: إن كنتِ تذكرين ألغازًا فأنا لا....

فقاطعته قائلة: لقد ظهر لي شيئًا فشيئًا أنك تختلف كل الاختلاف عمن كنت أتخيله في أول الأمر، أعني عمن أحببته.. وعندئذ حدث شيء عجيب، رأيته وقد أخذ رأسه فجأة بين يديه، ثم إذا به يجهش إجهاشًا اهتز له جسمه كله، وانحدر دمعه يبلل أصابعه ويسيل على خديه، بينما كان يكرر مرات عديدة في صوت به جئة:

- زوجتي لم تعد تحبني! زوجتي لم تعد تحبني!....

لم أكن أتوقع هذا الانفجار قط، فلبثت كالمصعوقة لا أدري ما أقول ولا أتأثر بدمعه، فإنني، بالطبع، لم أعد أحب روبير، أو لقد كنت بالأحرى غاضبة من التجائه إلى سلاح كنت أراه غير نبيل. مهما يكن الأمر فقد كنت مستاءة لشعوري بأنني تسببت له في حزن حقيقي؛ ورأيت أن عليّ كبت كل ما أحمل له في صدري من أسباب الغضب، غير أن مؤاساته كانت تقتضيني الالتجاء إلى احتجاجات كاذبة؛ فدنوت منه ووضعت يدي على جبينه الذي رفعه في الحال وقال:

- ولم إذن تزوجتك؟ أللاسم الذي تحملين؟ أم لثروتك؟ أم لمركز والديك؟ هلم... تكلمي! تكلمي حتى أفهم. أنت تعرفين تمام المعرفة....

وبدا في هذه اللحظة طبيعيًا صادقًا تمامًا حتى توقعت منه تتمة العبارة على ما يأتي " أنه كان في إمكاني أن أجد خيرًا منك" غير أنه قال :" ذلك أنني كنت أحبك" ثم أردف في صوت يقطعه النشيج :

- وإنني كنت أعتقد أنك تحبينني.

وكدت أصدم لعدم تأثري، فإن انفعال روبير، وإن كان صادقًا الآن لم يكن له، لتبسطه على هذه الصورة، أقل أثر في نفسي. وبادرته قائلة:

- كنت أظن أن هذا الحديث لن يكون ذا أثر أليم إلا في وحدي، ولكنه قاطعني

قائلًا: تقولين إنني لست ذلك الرجل الذي كنت تتخيلينه، ولكنك أيضًا لست تلك المرأة التي كنت أتخيلها. أفي مقدور أحد أن يعرف أكان حقًا ذلك الذي يتخيله؟

وعلى نحو ما اعتاد أن يفعل، حين يستحوذ على فكرة الغير ليطويها في صالحه. (وأحسبه يأتي ذلك دون وعي)، قال:

- ولكن يا عزيزتي، ليس هناك فرد، فرد واحد، يبقى على الدوام في نفس المستوى الذي يطمع في أن يسمو إليه.. في هذه النقطة بالذات تتركز كل مأساة حياتنا الأخلاقية.... أنا لا أدري أتفهمينني؟ (وهذه الجملة الملازمة له تواتيه دون استثناء كلما همّ بتغيير موضوع حديثه وشعر أن مخاطبه يلحظ هذا التغيير) إنكِ لن تجدي سوى أولئك المتجردين من مثل أعلى، الذين...

فصحت في ألم: " يا صاحبي ! يا صاحبي ! " وأومأت إليه بحركة من يدي لوقفه؛ إذ كنت أعلم جيدًا أنه إن مضى في هذا الميدان التعليمي فلن يقف من نفسه، وأفضت به مقاطعتي إلى أنه انحرف قليلًا وقال:

- كأن الإنسان في حياته لا يجد نفسه مجبرًا على أن يخفف من حدة حماسه... أعني أن يعدل بمثله العليا إلى ما هو في المتناول؛ أما أنت، فلقد كنتِ دائمًا خيالية.

لابد أن يكون هذا القول صحيحًا مادام أبي أيضًا كان يكرره عليّ بالأمس؛ ولم يسعني إلا أن أبتسم في حزن. وبوثبة طبيعية، عاد روبير إلى هذه المناطق العالية، التي أقدمت شكاتي في سفاهة وأثرة، وإخراجه منها، فأردف:

- يا عزيزتي، أنت تلمسين هنا مشكلة من أخطر المشكلات، وهي تخص التعبير نفسه. نعم، أننا نود أن نعرف أيزول الشعور ويفنى في التعبير، أم أن التعبير، على النقيض، يتيح للشعور أن يعي وجوده فيخلق فيه نفسه؛ فإننا في الواقع نجد أنفسنا مسيرين إلى أن نشك في احتمال وجود الشيء دون مظهره؛ وإن كان... ها سأفسر لك رأيي وستدركين في الحال.

هذه العبارة الأخيرة تحضره لتشد من أزره كلما شعر أن الأمر قد بدأ يلتبس عليه، وهي تستفزني بصفة خاصة أكثر من سواها.

فقاطعته قائلة: لقد أدركت تمامًا، أنك تقصد أنه ينبغي علي ألا أعير اهتمامًا كبيرًا إن كان هذا الشعور الجميل الذي تعبر عنه حقيقيًا أو غير حقيقي.

فحمل نظره فجأة نوعًا من البغض، وقال في صوت يكاد يكون حادًا:

- آه ! يسرني حقًا أن أرى أنك تفهميننى! أهذا كل ما تذكرين من حديثنا؟ أينطلق لساني بالحديث إليك دون تحفظ، فأفتح لكِ قلبي بما لم أفتحه لأحد من قبل، أأذل نفسي وأشهق في البكاء أمامك، ولا تُحرك عبراتي فيك ساكنًا، وتؤولين كلامي، وتُذعِينني في لهجة جافة أستخلص أن كل الشعور من جانبك، وأن كل الحب الذي أكنه لك ما هو إلا...

وأوقفته عبراته مرة أخرى عن إتمام كلامه، فنهضت وليس في خاطري إلا فكرة واحدة، هي أن أضع حدًا لحديث لم أوفق في توجيهه كما ينبغي، ولم أفلح خلاله إلا في أن حملت نفسي كل مظاهر الخطأ. فلما أن وضعت يدي على ذراعه لوداعه التفت إلي فجأة وانطلق يقول:

- كلا! كلا! ليس هذا صحيحًا. لقد أخطأت، إن كنتِ مازلت تحبينني، ولو بعض الحب، لأدركتِ أنني لست إلا مخلوقًا مسكينًا كغيره من المخلوقات، يجاهد ويسعى بقدر ما أوتي له حتى يكون خيرًا مما هو.

- وهكذا، وقع أخيرًا على الألفاظ التي كان في إمكانها أن تصل إلى قرارة قلبي، فانحنيت إليه كي أقبله، ولكنه دفعني دفعًا يكاد يكون عنيفًا وقال:

- لا، لا، دعيني! لا يسعني بعد الآن أن أرى إلا أمرًا واحدًا، وأن أحس إلا بشيء واحد، هو أنك لا تحبينني.

وانصرفت على أثر هذا الكلام وقلبي مفعم بأسى أشبه بأساه، أسى عرفته من أساه، إنه ما زال يحبني واأسفاه! وليس في وسعي أن أفارقه....

خاتمة

كنت قد عاهدت نفسي ألا أدوّن شيئًا بعد ذلك... فبعد حديثي مع روبير بقليل، وقعت بأوروبا هذا الحوادث الخطيرة التي اضطربت لها، والتي جرفت بمشاغلنا الخاصة، بودي لو أعود إلى عقائد صباي حتى يكون في مقدوري أن أتوجه إلى الله، من صميم قلبي، هذه الضراعة "رب ! احفظ فرنسا!، ولكني أفكر أن المسيحيين في ألمانيا يبتهلون إليه من أجل وطنهم بنفس هذه الضراعة، رغم كل ما يشهر لتمثيلهم برابرة أشرارًا. وينبغي لفرنسا أن تلتمس مما في نفوس أبنائها من كفاية وجدارة، أسباب حصانتها وحمايتها. وظننت، في أول الأمر، أن روبير فهم ذلك جيدًا، ورأيته يتأسف لكون مرضه يحول بينه وبين واجبه، ثم رأيته بعد بضعة أشهر يستشير مارشان عن الوسيلة التي تمكنه من الحصول على الشهادة الطبية التي تسمح له بالتطوع.

ليتني لم أعلم فيما بعد أن فرقته كانت تُستدعى للتجنيد، وأنه كان معرضًا لأن ينقل من الجيش المرابط إلى الجيش المحارب، وأنه، إذا يستبق أمر التجنيد، يحتفظ لنفسه بحرية اختيار المكان الذي يوفد إليه. وهذا ما احتاط له أكبر الحيطة، ملتجئًا إلى كل من يستطيع شدّ أزره. لِمَ أذكر ذلك كله هنا؟ أود ألا أتحدث إلا عما دار بيننا من حديث أليم، ذلك الحديث الذي على إثره قررت خطتي التي أسلكها؛ ولكن كيف يتاح لي أن أشرح ما حدث دون أن أتكلم أولًا عن الفحص الطبي الذي أجرى له مرة أخرى في مجلس التجنيد؛ فلقد توصل إلى قرار من المجلس بإعفائه من التجنيد لإصابته بصداع مزمن على أثر صدمة في الرأس، وما كدت أبلغ هذا لقرار حتى رغبت في الرحيل إلى مستشفى كائن بجبهة القتال، وكنت على يقين من أن طلبي الخدمة في هذا المستشفى لا يمكن أن يرفض؛ على أن قبولي بالمستشفى كان يقتضى موافقة روبير؛ ولكنه أبى في خشونةٍ أن يوافق، وقسا في قوله زاعمًا أنني ما فكرت في هذا الرحيل إلا لإخجاله وإلقاء درس عليه وإخزائه؛ فلم يكن بد من النزول على إرادته، ولم يسعني سوى أن أنتظر وأقنع بالعمل في مستشفى لاريبوازيير، حيث غالبًا ما قضيت الليل، بحيث لم أعد أرى روبير إلا قليلًا،

ودهشت ذات صباح إذ شاهدته يرتدي اللباس العسكري، وعلمت أنه قد استطاع، بفضل معرفته اللغة الإنجليزية، أن يلتحق بإحدى لجان الإعانة الأمريكية، فأتاح له ذلك ارتداء اللباس العسكري والظهور بمظهر المحارب. غير أن حظ المسكين كان سيئًا؛ فإن جهره بغيرته الوطنية انتهى به إلى إيفاده إلى فردان، ولما لم يكن في استطاعته التهرب من الرحيل دون أن يثير الظنون، "حسب أن من واجبه" أن يستقبل سوء حظه في تحدٍّ ومباهاة، وإذا به بعد أيام محدودة يحظى بوسام الحرب، ما أثار إعجاب جوستاف وأبويّ وبعض الأصحاب إعجابًا فائقًا. ورأيته في فردان حيث دعاني يومًا لزيارته، قد توصل إلى الظهور بمظهر البطل، ولا أخال إلا أنه كان ينتظر هذا الوسام بفارغ الصبر حتى يسعى للعودة إلى بيته. ولم يتعذر عليه ذلك، لما له من علاقات ووساطات. فلما أبديت دهشتي من عودته المفاجئة التي لا تتفق وعبارات الغيرة الوطنية التي كان يجهر بها في فردان نفسها من أيام قلائل - هذه العبارات الجميلة التي كانت تحث على المثابرة والجَلد - فسّر عودته قائلًا إنه يعرف، من مصدر ثقة، أن الحرب على وشك الانتهاء؛ وأنه يشعر الآن أنه في باريس أصلح، إذ إن النفسية العامة فيها تبدو أسوء مما هي عليه في جبهة القتال.

حدث ذلك من يومين... ومع ذلك لم أوجّه إليه أية لائمة، فإنني، من بعد حديثنا الأليم، صرت أتقبل منه كل شيء دون أن أنطق بشيء. هذا وأنا لا أزدري أعماله بقدر ما أزدري الأسباب التي يقدمها لتبريرها، ولعله قرأ في عينيّ هذا الازدراء؛ لأنه سرعان ما شرع يدافع عن نفسه إزاء صمتي، زاعمًا أن وسامه لا يسمح له فحسب أن يشك في حقيقة شجاعته، بل ويعفيه من هذا الشك، أما أنا وإن كنت لم أحظ مثله بوسام الحرب، فإني لا أطلب الشجاعة إلا لذاتها، لا لما تثيره من إعجاب الناس بنا أو رضائهم عنا. هذا وأنا "الخيالية " في حاجة إلى مجابهة الواقع .... ثم بعد أن امتدح نفسه في سذاجة على كونه خرج من الحرب دون أن يخسر شيئًا، صاح بي فجأة؛ إذ رآني لا أستطيع كبت ابتسامتي:

- هذا وإنكِ لو كنتِ مكاني ما فعلتِ إلا ما فعلت.

لا، يا روبير، لا أسمح لك بأن تقول هذا القول، ثم لا أسمح لك على الأخص

بالتفكير بذلك. ولم أجب عليه بشيء، ولكني اتخذت قراري في الحال؛ واستطعت بعد ذلك الاتصال بمارشان، ورأيته في نفس الليلة واتفقت معه على كل شيء. لقد قام عن طيب خاطر بكل المساعي اللازمة، وغدًا أبرح دون ضجة إلى شاتلرو. وفي ذلك المستشفى الكائن في مؤخرة الجبهة سوف ينظر الكل إلي وكأنني في مأمن من كل خطر، وإني لأرجو هذا من كل قلبي. على أن جنوفبيف وحدها على علمٍ بما يحفّ هذا المستشفى من الأخطار. كيف أتيح لها معرفة نوع المرضى الذين يعالجون فيه؟ هذا ما لا أدريه... ولقد التمست مني أن أدعها ترافقني إليه لتقوم بالخدمة فيه بجانبي، ولكني رفضت؛ إذ لا يسعني أن أقبل منها أن تقحم نفسها، وفي سنها هذه، وسط هذه الأخطار؛ حياتها كلها ما تزال أمامها.

وقلت لها وأنا أقبلها في حنو زائد وكأننا على وداع: " كلا يا جنوفييف، ليس في احتمالك، بل ليس من واجبك أن تتبعيني حيث أنا ذاهبة." جنوفييف، حبيبة نفسي، إنها على شاكلتي لا تستطيع أن تقنع بمظاهر الأشياء. إنني أحبها حبًا زائدًا، ومن أجلها كتبت ما كتبت؛ وإني أورثها هذه الكراسة إن قُدر لي ألا أعود......

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner